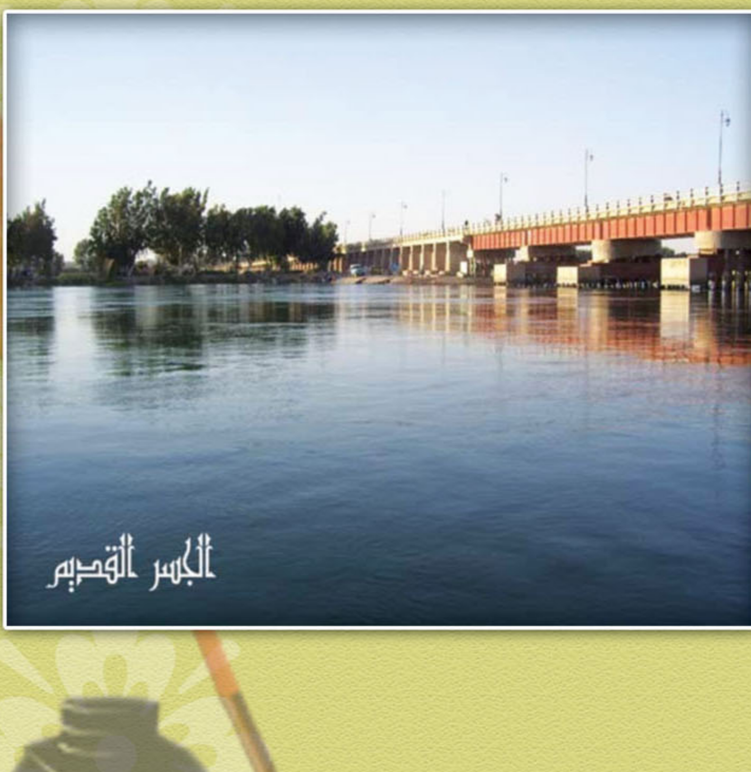
وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي



محمد الموسى الحومد

أحاديث على الهامش

في الشعر الشعبي الرقي

تصميم الغلاف

خالد يزبك

وزارة الثقافـة

الهيئة العامة السورية للكتاب
مديرية التراث الشعبي
مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي
(٤٨)

أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي

محمد الموسى الحومد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٢م

أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي / محمد الموسى الحومد .- دمشق : الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٢٣٦ ص ؛ ٢٤ سم.

(مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي؛ ٤٨)

١- ٨١١,٠٩٥٠٠٩ ح و م أ ٢- العنوان
٣- الحومد ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

الإهداء

إلى كل من كان زاده التراث.

المؤلف

تنويــه

١- بغية تسهيل قراءتها كتبت الأشعار الواردة - في هذا الكتاب - كتابةً أقرب إلى الكتابة العروضية.

٢- أُعيد حرفا القاف والكاف إلى أصليهما في الكتابة، بيد أنهما يلفظان جيماً مصرية وجيماً مفخمة.

٣- أُعيد تصنيف الأشعار وفق ألوانها، تسهيلاً للقارئ على تمييزها.

٤- ثمة كلمات وضعت ما بين قوسين، تلافياً لحركات الإعراب.

٥- لم يتبع منهجاً ثابتاً لطرح الأفكار تبسيطاً لعرضها.

٦- ورد الغزل صريحاً في بعض الأشعار، ولم نبتغ ذكر التصريح بقدر ما دفعتنا الصورة لذكرها.

٧- رجحنا الآراء الأكثر إقناعاً في ذكر المفردات المختلف عليها بين رواة الشعر الشعبي، وحفظته ومغنيه.

٨- لم نقصد من دراسة الشعر الشعبي ترجيحه على الفصيح، بل وجدناه شعراً جديراً بالدراسة بغض النظر عن المقارنة.

٩- تتكرر الشواهد، لحملها لأكثر من صورة ، ونأمل أن نصل وإياكم لمبتغانا وهو التشبث بالجذور.

المؤلف

M:

الشعر الشعبي الرقي بين الفصيح والعامي

دخل الوهن لغة أهل "الرقة"، كما دخل العربية كلها في منتصف القرن الرابع الهجري – كما صنف النحويون – فتطورت اللهجات المحلية، على حساب اللغة الفصحى – اللغة الأم– بعدما كانت "الرقة" إحدى ركائز الدولة العربية، حينما كانت حاضرة الخليفة "الرشيد"، ومع أن الشعر الفصيح لم يغب تماماً من سماء الأدب، إلا أنه تنحى جانباً، ليترك مكاناً للشعر الشعبي، حتى عادت له ركائزه مع بداية القرن العشرين .

مع ذلك الاختلاف الطفيف بين الشعر الفصيح، والشعبي من حيث النطق، إلا أن المواضيع والصور البيانية كالتشابيه والاستعارات لم تختلف، على نهج الاختلاف المبني على التفككات الإدارية والسياسية التي مرّ بها العرب. في الفترة اللاحقة للقرن الرابع الهجري، وما انتابها من بعد بين التونسي واليمني والعراقي والشامي، ولكن الدارس للأدب الشعبي يجد الشبه موجوداً في الوزن العروضي، وترتيبات بيت الشعر، كما في "القوما"، و"الدوبيت"، و"العتابا"، و"المولّيا"، و"الأبوذيه"، والشعر النبطي الذي يقرضه بداة العرب في جميع البوادي العربية و"الرقة" تلك المدينة المترامية على ذلك النهر العظيم، حافظت على عروبتها بكل ما احتوته من فنون وآداب، وإنك لتجد الصلة واضحة ما بين الماضي والحاضر، فتجد الناقة والفرس، كما وجدته في شعر "امرئ القيس"، و"طرفه بن العبد".

يقول "امرؤ القيس" في وصف فرسه:

مكـــرٍّ مفـــرٍّ مـــدبرٍ مقبـــلٍ معـــاً كجلمود صخرٍ حطّه السيل من عـــل[1]

ويقول الشاعر الشعبي:

لا شـــد واركـــب علـــى مفتـــول الـــذراعي

يطـــوي البـــوادي ورفيجـــو بـــالفلا ســـاعي[2]

دحـــج شـــمّرت هنـــوف عيونهـــا وســـاعي

بـــالظن انهـــا تلـــوفت عينهـــا ليّـــه[3]

ويقول "جرير":

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعـت أسباب دنياك من أســباب دنيانـــا[4]

ومن ذلك يقول الشاعر الشعبي:

شـــمس الـــضحى هرفـــت بعـــد الهنـــا والفـــي

لا بـــارك الله بيـــومٍ فارقـــت ولفـــي[5]

ناديـــت يا جـــاذب الحـــسرات ويـــن الفـــي

لالـــي قرابـــة ولا لـــي بـــالنزل خيّـــه

مما تقدم، نجد أن الشعر الشعبي الرقي، هـو وليـد للـشعر العربـي الفصيح، وهو امتداد له، ولا يختلف عنه إلا بحركـات الإعـراب، وسـلامة اللفظ، وهو همسات للسمّار وأهازيج للفتيـات الـشدية، وعبـرات العـشاق

(١) الأغاني / ج٢/ص٤٧٠/

(٢) مفتول الذراعي: حصان ذو أرجل مفتولة، رفيجو: فارسه، ساعي: يعدو بسرعة.

(٣) دحج: انظر، شمّرت: كيف مرّت، هنوف: حسناء، تلوفت: تلتفت عينها ليّه تنظر إليّ.

(٤) ديوان جرير.

(٥) الفي: الظل، ولفي: حبيبي، وين ألفي: أين ألفي، قرابة: قريب.

الملوعة، وذكر لصفات الأعيان، ووصف لعيون ومحاسن الحسناوات، ومجمع الحكم والمواعظ.

وإنك لتجد الرقي يقف عاجزاً أمام من يستشهد في بيت من الشعر، كما هو عند العرب عامة، وذلك لعظمة الشعر في عيونهم، بغض النظر عن قائله وظرفه، ولكن ذلك لم يؤثر بمنزلة الشعر الفصيح التي ما برحت سامية وعالية، وتحتل مركز الصدارة.

سمات الشعر الشعبي الرقي

إذا ما أردنا ذكراً لسمات الشعر الشعبي الرقي، فإنها كثيرة كثر محاسنه، لكنها متصدرة بسمتي السوداوية والحرمان

أ- ملامح الحزن والسوداوية في الشعر الشعبي الرقي:

كما لم تخلُ صفوف الأدب الأخرى، كالرواية والقصة التي كتبها أبناء الرقة من السوداوية، وملامح الحزن كذلك كان الشعر.

يقول أحد أبطال رواية (**المغمورون**) للدكتور العجيلي، لندى تلك الفتاة القادمة من المدينة (نحن أبناء بادية قفراء موحشة جافة، حين كنت بعمرك كنت أسير الساعات في شمس القيظ المحرقة، على قدمي حتى أجد غديراً ماءه كدر موحل ،أو بئراً أنزل فيه عشرين باعاً ،حتى أفوز بجرعة ماء أبرد بها لهاتي المتشققة من العطش)[1].

في تلك البادية الجافة ذات المساءات الحزينة.عاش ابن الرقة كما عاش ابن الفرات وابن البادية العربية بأسرها. بطبعه البسيط والقاسي بآن .

ومن حيث أن الشعر ديوان العرب، فقد نقل لنا شعراء هذه المنطقة صور طبيعتهم بحذافيرها، وأخلاق أهلها، ومن يرد التعرف على أخلاقهم، فليحفظ أشعارهم، ومثلما يقول جبران مسعود: (**الأمم تعبر عن خلجات قلبها بالشعر، قبل أن تعبر عن بنات أفكارها بالنثر**)[2]. والشعر الرقي كترجمة لمجموعة من الأحاسيس التي تنتاب ابن الرقة، خلال حياته اليومية، أو نقل لصورة لحادثة عاشها، جاء يرتدي عباءة سوداء حزيناً.

---

(١) المغمورون: /عبد السلام العجيلي./رواية/.

(٢) المحيط في الأدب: /جبران مسعود/.

اختلف الباحثون حول موضع الحزن في الأغنية الفراتية.أهو في الشعر، أم في اللحن، أم في الصوت؟

فريقٌ أفردها، وآخر ثنّاها، ومنهم من جمعها. والرأي الثالث أميل إلى الصواب من غيره، فعند استعراض الشعر الفراتي عامة والرقي خاصةً، نجد أن أغلب أبياته حزينة المعاني. بدءاً من القصيد، مروراً بالعتابا والموليَّا والنايل وحتى التشاطيف. وقد أرجع الباحثون والشعراء السوداوية إلى أسباب عدة.

يقول الشاعر محمود الذخيرة **(تتسم القصيدة الفراتية بالسوداوية والحزن، وذلك لأسباب كثر، أهمها الاستبداد الناتج عن المغول والتتر، والحروب التي يتمت الأطفال ورملت النساء، وروعت الشعب بالمآسي، وتركت في كلِّ بيت مأتماً، هذه الظروف جعلت سمة من الحزن تظهر في كل بيت شعر فراتي)**[1].

إلا أن اتسام الشعر بالسوداوية والحزن في بوادٍ أُخرى، ينفي صحة هذا الرأي، ويؤكد أن السبب الحقيقي لهذه السمة الحزينة هو الطبيعة بأسرها، والبادية ذاتها حيث قسوة الحياة وصعوبة العيش والجفاف في بعض السنين والفيضانات في بعض الأعوام.

ينقل لنا البدوي أو الريفي حرمانه وشعوره بالحاجة العاطفية للألفة وحتى الحاجة المادية، من خلال أشعاره التي تمتلك سمة واضحة من الحزن.

يقول أحد شعراء القصيد(الشعر النبطي) شاكياً غدر الزمان:

أويـــل قلـــــــــبٍ مــسَّنو لواكيــع	**مـن زغـر سـني الليـالي غـدرني**[2]
يــا دهــر يــا خــوان مالــك روابيــع	**أدعيتنــي مانـــــام ليلــي أعنــي**[3]

(١) أهل الرقة في ثلاثة قرون / محمود الذخيرة / مخطوط /.

(٢) لواكيع: أدوات الكي بالنار وعلى الغالب تكون مكونة من قطع قماشية ملفوفة بعناية يحرق رأسها.

(٣) روابيع: أصدقاء، أدعيتني: جعلتني، أعني: أعنُ.

وتتأجج هذه السمة في العتابا لتبدو واضحة:

لـف قنـدوس جرحـي ومـا شـفاني ولا نفـــع بحـالي ولا شـفاني[1]
يـــوم وداع خلـي ماشـوف آنـي السواد من البياض من العمى[2]

أما في الموليّا ذات المواضيع المتنوعة، فإن هذه السمة تخبو، إلا أنها لا تختفي تماماً:

العـــين جفـــت دمـــع مـــذروفها مـــن الـــدم
كدَّرني جـور الهـوى مـن صـباي زاد الهـم
احتـــسيت مـــر العمـــر جرعـــات دفلـــى وســـم
ســـافن جنـــاب الـــدليل وعـــن مـــساميَّه

أما النايل فيرتدي ثوب السواد بشكل دائم، ومن ذلك قيل (**أنه أخذ تسمية النيل أي السواد**) ويلاحظ فيه كلمات الغراب والبوم والدمع التي يجد فيها الشاعر سبيلاً للحزن.

تـــنغط بـــدارالغوالي يـــا غـــراب لاجـــازاك
ذكرتنـــي بـــالولف ســـليتهم لـــولاك

وتضفي هذه الملامح مسحة جمالية، لذلك الشعر الذي نما وترعرع بين أفئدة صادقة وفية، ترجمت عواطفها بكلمات عشقتها الأذهان، وتمتعت بمعانيها الرائعة لبساطتها وروعتها، ولا زالت تزداد وتزداد، إلا أن تلك الملامح الحزينة بدأت تختفي، وذلك لما توصل إليه ابن هذه المدينة بباديتها وريفها من التمدن والتحضر الذي يعيشه الآن.

---

(١) قندوس: طبيب، لا شفاني: لم يشفني

(٢) آشوف: أرى

ب.. سمة الحرمان في الشعر الشعبي الرَّقي.

الحرمان سمة من سمات الغزل العذري ، الذي عرفه العرب في صدر الإسلام والذي ينسب إلى بني عذره وهم قوم يقول عنهم جبران مسعود: **(بنو عذره قوم ذاعت أخبارهم في الحب المخلص العفيف وكانوا إذا عشقوا ماتوا)**

يروى عن أحد العذريين أنه قال: **(لقد تركت بالحيّ ثلاثين قد خامرهم السلّ وما بهم داء إلاّ الحب)**(١).

من ذلك يقول جميل:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ... ويحيا إذا فارقتها .... فيعود(٢)

ويقول قيس لبنى:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيم

يتيم جفاه الأقربون .. فجسمه ... نحيلٌ وعهد الوالدين قديم(٣)

يشاطر الشاعر الفراتي الغزل العذري هذه السمة وربما تسمو على غيرها من سماته الأخرى كالحبيب الواحد:

لي هاج بحر الهوى الزين ملاّح

حتى العذيمي يتباهى حين مالاح

اركض وراهن واصيح ملاح يا ملاح

كلجن حوارم ترى من غيرها هيّه

والوفاء والوجد والإخلاص والألم ،حيث يتضاعف فيه الحرمان من رؤية البيت، والحاجة إليه.

---

(١) جبران مسعود: المحيط في الأدب ص٣٠٥

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

يـا ربـي صـابر لحكمـك مـالوج آنـي وصـرت مثـل اليتـيم المـالو جـاني

دخيلـــك لا يـــا سـيّد ملّـــه جنّـــي خـــذن عكلـــي وخلنّـــي بـــالهوى

في الغزل العذري كان يذكر في أغلب أبياته اسم من يتغزل بها الشاعر، على نقيض الشعر الشعبي في وادي الفرات، حيث لا يسمح النظام العام في هذه البيئة بذلك. لذلك يلجأ الشعراء إلى سلوك سبل أخرى، فقد يستعيض الشاعر عن ذكر الاسم بذكر معناه:

آنــــي جتلنـــــي مـــن اســـمه بـــاول الـــذودِ

حنـــــت علـــــى حوارهـــــا بفــــروع ورودِ

ماكـــدر علـــى وصـــولها لا آنـــي ولا نجـــودي

همـــي رحـــل مـــا يـــشيلوه هـــديب شـــرجيّه

وكذلك:

آنـي جتلنـي مـن اسـمه للفلـق تـالي (....

وهذه إحدى ركائز الحرمان فيه. أما عن ظواهره، فتبدو في أغلب الأبيات،

فنجد من أمسى لفراق الحبيب كمن أصيب بداء السلّ:

مـن مـنكم نـشد علـي مـن سـال؟ جفيتـوا وبجفـاكم ....صـرت منـسال

شـعندي غيـر دمـع العـين مـن سـال اخفـف بيّـه مـصاب الـصّار ...بيّـه

ومنهم من يقول أنه مات لفراق حبيبه فأحيته أخباره:

يـــا عـــين هـــاتي بكـــى يـــا عـــين بطلـــي النـــوح

واريـــدج يـــوم المفــــارق بــــيج عينـــة روح

جـــاب المخـــيط جفـــن جـــاب المغـــسل لـــوح

وســـمعت بأخبـــارهن دار الـــنفس بيّـــه

هذه الشجون وتلك العبرات المرسومة بعناية متقنة، وهذه الصور الجميلة الواردة في غزل الحرمان، أكست الشعر في وادي الفرات ميزة فريدة، تملكها وامتاز بها، ونقلت لنا بصدق حاجة الشاعر لمن يهوى ويحب وحرمانه من لقائه. فبدت كشربة ماء يشتاقها الظمآن، ولحظة أمان يرنو إليها الخائف، فجاءت رائعة بكل ما فيها، وكانت بذلك ثوباً من ثياب الحزن التي يرتديها الشعر الفراتي.

أغراض الشعر الشعبي الرقي

بما أن الشعر الشعبي الرقي فرعٌ من فروع الشعر العربي فهو شعرٌ غنائي، ويحوي بين دفتيه أغراض الشعر العربي كلها. من مديح وهجاء وغزل وفخر وحماس ورثاء وعتاب وحكمة.

أما عن المديح فشعره قليلٌ، لأن أهلَ الرقة يستهجنون الشاعر المدَّاح، فالصلة التي كانت تربط الرقيين مع الحكام والولاة في فترتي الاحتلال التركي والاستعمار الفرنسي، علاقة عدائية بحته، فليس هناك مجال لمدح الحاكم أو الوالي، ولا أثر لهذه السمة في الشعر الشعبي الرقي مطلقاً، بل نجدها في جانب مناوئ متمثل بالفخر بالثورة عليه:

ثريَّـــا بـــاش خـــيَّم عالـــشريعة	**يريـد بلادنـا غـصب عـن اهلنـا**
ذبحنـــا عـــسكرو واليـــوز بـــاش	**و ـــواجيهم كـــورد الـــدودحنا**
مـــا بـــين زعـــيج والرقـــة الـــسمرة	**بـــان الفـــارس المـــنهم ومنَّـــا**
إحنـــا أبطـــال والتـــاريخ يـــشهد	**إحنـــا الزبيـــد المـــا نعطـــي وطنَّـــا**
أهـل شـيمة وحـشيمه وأهـل عفـه	**وأهـل نـاموس مـن جـدنا لاهلنـا**(١)

مع الإشارة إلى وجود بعض الأشعار التي مدح بها الشعراء الأعيان، وشيوخ العشائر، والتي كانوا يرنون من خلالها إلى جوائز نقدية أو عينيّه، أو النجاح في خطبة عروس أو مفاخرة عشائر أخرى.

---

(١) من رسالة تلقيتها من الشاعر محمود الذخيرة أيلول ٢٠٠٠.

لكن الأشعار الهجائية بموضوعها نادرة وإن وجدت، فإنها لا تأخذ المواضيع التي عرفها العربي في العصور الآفلة.

فغـض الطـرف أنـك مـن نميـر ... فـلا كعبـاً بلغـت ولا كلابـا(١)

فظاهرة الطعن بالنسب التي كانت بارزة فيما مضى، تكاد تكون معدومة أو بالأحرى تختفي تماماً لولا قول الشاعر طلب الجروزي يهجو آخر:

راسـك مفتـل كمـا هلـف لفـى مـن الحـج

علامتـك بينـت بـرطم وسـن يلـج

إن سـألت عـن اصـلنا مـن الغـانم المـدلج

جمـع الجـروزي نطمـح حـصن الـسواريه

ولم يجبه ذلك الرجل حتى سأل عنه وعرفه وفي اليوم التالي، كرر طلب الجروزي قوله السابق فأجابة ذلك الرجل قائلاً:

ماقلـت لـك ياطلـب هـرج الـردى عيبـه

وتقـول عنـدي دبـش وذهـوب أبولعيبـه

خـشيت ذاك المجـد ياعيبـة العيبـه

جنجـول ينخـل قمـل وتـراب ثمنيَّـه

وهذان البيتان هما أقسى ما وجد في الشعر الهجائي.

تعتبر ميزة اختفاء ظاهرة الطعن بالنسب ميزة حضارية وأخلاقية، امتاز بها أهل الرقة على الرغم من الجهل الذي كان يخيم عليهم أثناء عهود الاستعمار، وقد سبقوا بهذه الميزة أسلافهم.

أما عن مواضيع الهجاء الأخرى، فلا تتعدى حيثيات الحياة اليومية وهي أقرب إلى الفكاهة والمداعبة. وأغلبها يرد في باب الجيل.

---

(١) البيان والتبيين /ج١/ص٣٢٣/.

أما المكانة البارزة بين أغراض الشعر الشعبي الرقي فهي للغزل فغالبه شعر غزلي ومواضيعه متنوعة ضمن إطار الغزل، ولولا اللهجة التي يتكلمها أهل الرقة التي يصعب فهمها على الجزائري والتونسي وربما المصري لاحتلت هذه الأشعار منزلة عالية في الشعر العربي، حيث الصورة الجميلة والبديعة، البعيدة عن التكرار والتكلف.

كبيـــــت جـــود الظمــــا أوهمــــت بــــاللالِ

يــــدمع عينــــي علــــى الوجنــــات بــــلاَّلِ

ســـاهرت مــــا ســـاهر البلبـــل بهـــا لليـــل

امـــساهر الجـــوري تـــا يـــشرب عـــذي ميّـــه

يمتاز الغزل الرقي بالألفاظ اللينة والسلسة والرقيقة التي تتكور في الغزل العفيف، وينقل لنا من ذلك أحد الشعراء الشعبيين الشكوى ،ويصف لذّات الهوى بعيداً عن التذلل والاستعطاف بقوله:

نيـــران قلبــي شـــعلت يـــا حمـــو ســـانيها

عالريمـــة اللـــي ســـلبت عقلـــي بمعانيهـــا

لمـــن اتبـــسم ولا حـــن لـــي ثمانيـــها

بـــيض الرهـــايف بعـــود الـــروك مجليَّـــه

وأننا لنجد من أكثر التشابيه وروداً في الشعر الشعبي الرقي، تشبيه الفتاة بالناقة على اعتبار أن الناقة تمتاز بالعفة:

الخـــود ناقـــة تهمـــل ترعـــى بكـــل طـــراف

جنبهـــا عيـــال الحمـــد بالمـــاطلي والـــشلف

مايردهـــا مـــن الطلـــب كـــل جاهـــل قـــرّاف

مـــازال حليلـــه يحـــدي وبيـــدو مكنزيَّـــه

ويبدو وصف المحاسن ذا نفس عفيف.

ليلو ثنايا الترف الماز سن لها يجازية تسجد العلام سنه لها

الطير الاوشح صعد بالجو سن لها جلجل عليها بجناح وحراب مدميه

وهكذا نجد الغزل في الشعر الشعبي الرقي، مرتدياً ذات الوشاح الذي ارتداه في الشعر الجاهلي والإسلامي والعصور التالية، لكنه أقرب إلى الغزل الجاهلي من حيث الموضوع، والأندلسي من حيث الوزن. أما عن الفخر فهو ملح الشعر ومن أنفاسه، وهو كثير إذا ما أردنا إحصاءه. ومن ميزاته في الشعر الشعبي الرقي.

الغيرية، والابتعاد عن الأنا، حيث يستخدم الشاعر كلمة "هلي وإحنا"

وقد حاول شعراء الرقة الشعبيون الابتعاد عن استخدام كلمة هلي في بداية أشعارهم. خشية أن تنسب هذه الأشعار إلى الشاعر عبد الله الفاضل الذي أبدع في هذا الجانب.

كثر الفخر في لون العتابا والقصيد، وانعدم في النايل والسويحلي واللكاحي، بينما ظهر في الموليا، كونها ذات مواضيع منوعة.

كبار الباس أهلنا من جدينا ولا نزعل من الماهم من جدينا

الناس النجم واحنا الجدينا وكثير من النجم علا وغاب

كما ظهر الفخر في ألوان غير مشهورة.

أقوى من الليث أمتن من أنا ملو أمتن من آجد عصا فير المراس

يا ما بدينا حفرنا نقر للدم وياما وضعنا بدال روسنا راس

و:

دنم جوادي واكرمو يمناها بشهود ربعو عالجمع عناها

لي حنت العليا موسى حماها ضاهر جنبها من جميع عداها

وإذا ما أردنا دراسة الفخر، كغرض بارز بين أغراض الشعر الشعبي الرقي، فإننا نحتاج لدراسة غالبه، لأن طابع الفخر غريزة موجودة في نفس كل عربي.

أما عن الشعر الحماسي، فإنه قليل الذكر، إذا ما قورن بغيره من الأغراض الأخرى لكنه يمتلك حضوراً صاخباً ويتفرع عنه الحداء وهو /الحث على القتال وأغاني العمل/.

ون هلهلتـــــي هلهنــــا لــــــك　　　　صـــبينا البــــارود قبـــا لـــك

ون هلهلتـــــي يـــــا عمتنـــــا　　　　إحنـــــا الــــــويلاد بلمتنـــــا

ولم يرد هذا الغرض في الأشعار الأكثر غنائية كالموليا والنايل بل ورد في ألوان نادرة.

دنــم جــوادي واكرمــوا لــي سـابج　　　　محــذاف جــدي قبــل جــدك ســابج

لركــب ضــحيه وعالعجيــد أســبج　　　　ياخـــال بالميـــدان مانـــت لقايـــه

دنــم جــوادي وأكرمــوه بــساعي　　　　أشـعل كمـا ديـك الحجـل لـو سـاعي

لــي صـاحت الرعيـان جيـت بـساعي　　　　رمحــي بظهــر بيــوض مثــل الرايــة

أما عن <u>الرثاء</u>، فقد اختصت النساء به، وكل أشكال الرثاء ترد تحت مظلة النعي، أو ما يعرف باسم العديد، وهو ذكر مناقب الميت عدا ما ندر منها.

وهو شعر حزين وبكائي يحث النساء على البكاء في المآتم والتعازي، وهو لون من ألوان الشعر الشعبي الذي يحتاج إلى دراسة مستفيضة، ونحن بدورنا نحث الباحثين على دراسة هذا اللون من الشعر:

أيـــا دمـــوع عينـــي مـــستهجه　　　　مـــــستعبرة وتريـــــد حجـــــه

* * *

ياســـبع يـــا ابـــو نـــاب أصـــفر　　　　صـــاحت وقالـــت يـــوم أكـــشر

* * *

ريـــت القهـــاوي تنجلـــب جيـــر   وفنجالهـــــا مـــــا يـــــستدير

*   *   *

وللعتاب دور بارز في الشعر الشعبي الرقي لما ينتاب الإنسان العربي عموماً من رغبة في المعاتبة وما يمتاز به من رقه وشفافية، والناظر إلى ألوان الشعر الشعبي الرقي يجد العتابا تحمل اسم هذا الغرض بالإضافة إلى أن أهل الرقة يعتبرون العتاب حالة غسيل للقلوب المكدرة اللائمة .ويرد ذلك في أغلب ألوان الشعر الشعبي الرقي.

من العتابا

عتابـــا مـــن عتابـــا لارســـللهم   حبـــر مـــن دمـــع عينـــي لارســـللهم

يلـــون الطيـــر يفهـــم لارســـللهم   عمـــن الطيـــر ســـريع بـــرد الجـــواب

ومن الموليا

مكتـــوب منـــك لفـــى يـــاخوي تقرابـــو   مـــن دمـــع عينـــي لملـــي الجـــود وقرابـــو

فـــايض عليـــك البحـــر بالـــك تجـــي قرابـــو   خـــايف عليـــك تغـــرق يـــا نـــور عينيـــه

ومن النايل

أنـــت القلـــت لـــي كلامـــك ويـــن وديتـــو   آنـــي البقيـــت أجنبـــي والغيـــر بـــديتو

أما عن <u>**الحكمة**</u> في الشعر الشعبي الرقي، فقد برزت في القصيد. الذي اختص به بداة الرقة، دون الريفيين منهم أو الحضر، وهذا لايعني أن الريفيين لم يقرضوا القصيد، بل أنهم قرضوه، ومنهم من برع به. كالشاعر حسين العلي العصمان، والشاعر خلف الكريدي، كما أن الشاعر علي الكلاح، لضلاعته في تفسير القصيد، ومعرفته مواطن عيوبه، سمي بيطار القصيد.

ويختم الشاعر البدوي قصيدته دائماً بالحكمة موضع كلامنا.إلا أنها نادرة في الألوان الأخرى.

من الحكمة في الموليّا:

الحيـــل منـــي نحـــل بـــقيت انـــي بـــس عـــود

عـــالزين مـــالي نجـــد مـــن لامتـــي بـــس عـــود

جهـــال يـــا أهـــل الهـــوى اللـــي حظـــى بـــسعود

ينهـــب لذيـــذ العمـــر تـــراه ------ عاريـــــَّه

ومن نماذج الحكمة في القصيد:

النـــار مـــا تنكـــره ببـــرد الكـــوانين   لـــي عسعست بالليـل للجمـر وضـاح

و:

الحـــر لـــولا الغـــدر مـــاذل جـــرده   يـــسطي علـــى ماكارهـــا قبـــل تغيـــره

و:

النـــذل لاتحطـــه بـــصف المـــساكين   وان سقيته الطيب يشكي من اللحاح

وبذلك نجد أن أغراض الشعر الشعبي الرقي، ليست بعيدة عن أغراض الشعر العربي، الجاهلي والإسلامي والعصور اللاحقة ،ولازالت الدماء العربية تنبض في عروق شعراء العربية، فتفيض شعراً رقراقاً، وإن اختلفت ثيابها. ولازلنا نجد أنفاس امرئ القيس وطرفه بن العبد، تخرج من قصائد شعراء الرقة الشعبيين وكلماتهم.

الباب الأول

ألوان الشعر الشعبي الرقي

الموليّا

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

الموليّا أصل التسمية

الموليا في اللغة: الصبي الذي أولي عليه. و المواليا :نوع من الشعر كانوا يتغنون به، وكانوا يقولون في آخر كل صوت منه "ياموا ليا" إشارة لساداتهم(١)

ومن نماذجه قول صفي الدين الحلي:

ياطـــــاعن الخيــــل والأبطــــــال قـــــد غـــــارت

والمخـــــصب الربـــــع والأمــــواه قـــــد غــــارت

هواطــــل الـــــسحب مــــن كفيــــك قـــــد غــــارت

والـــــشهب مـــــن شــــاهدت أضــــواك قـــــد غــــارت

وقوله أيضاً:

ســـــل مقلتيــــك الكحـــــال عمــــن سلاســـــلها

ومرشــــفيك مــــن رشـــف منهــــا سلاســــــلها

وعارضـــــيك التـــــي مـــــدت سلاســـــــلها

كــــم مــــن أســــود ضــــواري مــــن سلاســـلها(٢)

---

(١) المنجد في اللغة والإعلام.

(٢) المستطرف /الأبشيهي.

والعامة تقول: «الموال ج مواويل».

المولوية: قلنسوة من صوف مستطيلة يلبسها المولوي "يقال فيه مولوية" أي يشبه الموالي بمعنى السادة.

أما الموليا التي نبحث فيها فهي، ضرب من ضروب الشعر الشعبي، وهي أبرز ألوان الشعر الشعبي المغنى في وادي الفرات، شكلها بيت بأربع شطرات، أشطره الثلاث الأولى موحدة الروي، أما الشطر الرابع فينتهي بياء مشددة وهاء متروكة، كقول الشاعر:

لا ضـــرب البيـــدا علـــيهم بكمـــال الـــسلاح

لبـــــو خـــــدودٍكما التفـــــاح لـــــو لاح

النـــــا علــــيهن تبــــل عــــامر والوشـــــاح

ورمـــــيم ـــــل بوعـــدهن للحـــول عالميَّـــــه

ومن نماذجها:

هــــب العــــذيمي وقــــب قــــب شــــوكرو والطــــوق

كلمـــــا يهـــب الهـــوى حنيـــت لـــك ياشـــوق

دُقــم بــراز الحلــو بللــه انهــضــو لـــي فـــوق

قلبـــي علــــى فــــراقهم ســـيخ بجمريّـــــه

اختلف الباحثون حول أصل التسمية ومكان وزمان ابتكارها، منهم من قال: أنها من سلالة المواليا، التي ابتكرها البرامكة في عهد الرشيد، ومنهم من أعادها إلى أهالي "واسط" في العصر الأموي.

يقول حمودي ابراهيم: «الموليا أو الملاية في عرف أهل الريف أو البادية هي المرأة التي تجيد القراءة والكتابة وتقوم بأداء الأمور النسائية، كرسم الوشم وغيره، ولما كانت هذه الملاية على هذا القدر من المعرفة فهي

إذن وكما يتصورها سكان تلك المناطق وقياساً على براعتها،مقياساً للجمال، وهكذا ولدت هذه الأغنية في العراق وتنظم بنظم البيات »[١]

ويعتبرها الشاعر "محمود الذخيرة" غناءً خاصاً بالمواليات بنات وزوجات الموالي.

«بتقديري أن الموال في بداياته كان غناء يخص الموالي، لذا جاءت تسميته منهم و الموليا عبارة عن موال رباعي،اشتق اسمها من الموال،وهي غناء للمواليات، فربما كان يخص النساء فقط، فنسب إليهن وأصبح "مواليا" ووصل إلى عهدنا هذا،بعد انحذفت الألف وشددت الياء وأصبحت كما نلفظها الآن"موليا"».[٢]

ومن الباحثين من يعيد التسمية إلى "العصابة"، التي يشدبها الرأس أو ما يعرف بوادي الزور ب "الهباري" التي تشبه القلنسوة، التي ورد الحديث عنها في المعنى اللغوي للـ "موليا"، وهذا الرأي أكثر إقناعاً لأن إحدى لازمات الموليا تقول:

عـالعين مـوليتين عـالعين موليـا   يـاواردات الغـدر مـا بالغـدر ميـه

ومن الغريب أن هؤلاء الباحثين لم يلتقوا في نقطة واحدة، مع أنهم يبحثون في معنى لمفردة واحدة، مما يرجح بأنها ذات هوية مجهولة وأن ابتكارها يعود لعصور الانحطاط.

وسواءً كانت "الموليا" مجهولة الهوية أو منسوبتها، تبقى اللون الأعذب والأشجى بين ألوان الشعر الشعبي الفراتي، واللون الذي يحوي بين دفتيه صوراً رائعة تمزج بين حضارة ومدينة وريف وبداوة، ناقلة أصداء ترنمت بها ذات أصيل ورّادة، وشدا بها راعٍ ترتع أغنامه على أملٍ تراءت فيه العودة إلى المنازل.

---

(١) مجلة التراث العراقية/حمودي ابراهيم.

(٢) السمات اللحنية للموليا /محمود الذخيرة/ مخطوط/.

"المولِيّا "والألوان المقاربة لها

آثرت خلال دراستي للون "الموليّا" أن أقارنها بما تتشابه معه من الألوان الشعبية العربية، مما أطلعت عليه منها ومما وقع بين يدي منه أبدأ حديثي بتكراري تعريفي للموليّا لمن لم يسعفه الحظ بالإطلاع على تعريفها في أحاديث سابقة عنها.

١- "الموليّا":

كما أسلفت سابقاً: "الموليا" ضرب من ضروب الشعر الشعبي، وهي أبرز ألوان الشعر الشعبي المغنى في "وادي الفرات"، شكلها بيت بأربع شطرات، أشطره الثلاثة الأولى موحدة الروي، أما الشطر الرابع فينتهي بياء مشددة وهاء متروكة، وتكتب على البحر البسيط ، كقول الشاعر:

لاضرب البيدا عليهم بكمال السلاح　　　لبو خدود كما التفاح لو لاح

النا عليهن تبل عامر والوشاح　　　ورميم ظل بوعدهن للحول عالميّه

٢- " المواليّا ":

يرجع ابتكار هذا الفن "للبرامكة" يروى «أن أول من تكلم بهذا النوع بعض أتباع البرامكة بعد نكبتهم، فكانوا ينوحون عليهم ويكثرون من قولهم (يامولى) وبالجمع (ياموليّا) فصار يعرف بهذا الاسم» كما سبق القول فيه. وقيل أن أول ما جاء من هذا الفن قول جارية من إماء "البرامكة":

يا دارُ أين ملوك الأرض أينَ الفرسْ

أين الذين حموها... بالقنا... والتُّرسْ

قالت تراهم رمم تحت الأراضي الدرس

خفوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرسْ

تلتقي "المواليّا" مع "المولّيا" بالوزن العروضي، وعدد أشطر البيت الواحد، فكلتاهما على البحر البسيط، وتختلفان بروي الشطر الرابع، ففي "المولّيا" ياء مشدودة وهاء متروكة، أما "المواليّا" فتنتهي بروي يتفق والأشطر الثلاثة الأولى ويرجع بعض الباحثين نسب المولّيا إلى المواليّا وهذا بعيد حسبما أرى.

٣- الموال البغدادي:

ويعرف هذا الموال بأكثر من اسم "كالشرقاوي" و"الحلبي" ويتكون بيته من سبعة أشطر، الثلاثة الأولى موحدة القافية مع جناس تام في نهايتها، ثم تبدل القافية بثلاثة أشطر أخرى بقافية موحدة وجناس تام أيضاً، أما الشطر السابع فيأتي موافقاً للأشطر الثلاثة الأولى، ومن أشهر الشعراء الذين ينظمون هذا اللون الشاعر العراقي "مظفر النواب"

يلتقي و"المولّيا" بالوزن العروضي، ويختلفان بعدد الأشطر، وقافية الشطر الرابع، كما أن الجناس في "الموال البغدادي" إلزامي بينما في"المولّيا" فإن الشاعر مخيّر قد يكتفي بقافية أو روي.

ومن أشهر المواويل البغدادية انتشاراً في "وادي الفرات":

«يا صاح عودي ذبل، يا صاح أنا أخوك لو جار الوكت صاحبك، اللي عليه اعتمد»

و:

رنــــت بخلخالهــــا عنـــد المـــسير دواي

منهـــا جنـــوني ومنهـــا علتـــي ودواي

يـــا لائمـــي كـــف لومـــك خلنـــي ودواي

مـــن شـــاف لـــي الـــريم ورد احمـــر بـــراس الـــوجن

ومطاوحـــه لـــو مـــشى عالخـــد راحـــن وجـــن

ماشـــافها مغـــرم إلاّ تـــسود وجـــن

ماهي من الحور لكن من عرب بدواي

ويعرف هذا اللون في ريف "العراق" باسم (الزهيري).

ومن الجدير بالذكر أن هذا اللون الغنائي غير منتشر في المنطقة الغربية في "وادي الفرات" لا نظماً ولا غناء، فهو يحتاج لموهبة شاعرية فذة، وإلى مغنٍ بارع.

وأكثر انتشاره في "العراق" وفي مدينتي "حلب " و "حماة " .

٤- "القوما اليمنية":

وهي بيت بأربعة أشطر – كالموليا – موحدة القافية، لكن الشطر الرابع ينتهي بواو وشين، تلتقي و"الموليّا" بالوزن العروضي وعدد أشطر البيت الواحد. لكنهما يختلفان بقافية الشطر الرابع، إذ أنها كما أسلفت في القوما واو وشين وفي "الموليّا" ياء مشددة وهاء متروكة يستعرض الدكتور "محمد عيدو غانم" صلتهما ببعضهما قائلاً: «يجدر بنا أن نشير إلى أن الموليّا والقوما هما من أنماط الشعر الدارج ينتميان في أساسهما إلى البحر البسيط»

ومن أمثلة القوما:

عـــشاق حـــسنك كثيـــر لكـــن عـــشقي خـــاص

فيــــه الـــصفا والوفــــا والـــــود والإخـــــلاص

وكـــــل مـــــن يـــــدعي هــــذا فيـــه روبــــاص

يميــــز الفـــضة البيــــضة مــــن المغـــشوش

٥- "الزلغطة " اللبنانية:

يتكون بيت "الزلغطة" من أربع شطرات، وهي أقرب إلى "المواليّا" ذات رويٍّ موحد، تلتقي والموليّا بالوزن العروضي وتختلف معها بقافية الشطر الرابع. ومن أمثلتها:

مبروك يابني نشال الهم من بالك — اليوم عرسك كنار الأرز غنالك

حقّك تشوف بعروسك عالمدى حالك — بالحسن أخت البدر يا ألف نيالك[١]

كما أن "المولّيا" تقترب من مواويل عدة تنتشر في بقاع الأمة العربية.

كـ "الموال الأعرج" في "مصر" و"النايل" في "بلاد الشام" و"العراق"، لكن الأقرب إليها هي الألوان الأربعة التي استعرضناها.

أما عن "الموالّيا" المصرية المعروفة في "سيناء"، فهي تختلف جذرياً عن "المولّيا" المعروفة لدينا، وتحمل اسم "اللكاحي" عندنا.

"الموالّيا" الموجودة في "سيناء":

ولـد يـا راعـي الـشّقرا — ويـن ايديـها حفيانـة

يمـك علـى عربنـا — يـا مـداوي الوجعانـة[٢]

وإن اختلفت هذه الألوان في بعض الجوانب والتقت في شطر منها، تبقى كأغصان الشجرة ووريقاتها ترويها العروبة ماءً وتمنحها نبضاً ودفئاً. وتشع أملاً.

(١) مجلة الحداثة اللبنانية.

(٢) الحياة الاجتماعية عند البدو– الدكتور "محمد زهير مشارقه" ص(٤٤٩).

"الموليا" و الأمسية الرقية الأولى

عرفت الجزيرة السورية في نهاية القرن التاسع عشر شاعراً شعبياً يدعى "ابن عوين الجبوري"، والذي كان ينسب إلى منطقة الخابور،عندما كانت ليست كما هي عليه الآن ،محافظات ومدن، وروى بعض المعمرين أنه زار "الرقة" في العام ١٨٩٨/م حاملاً معه حكاية حبه لـــ "هدله الحمد" التي فقدها في العام ذاته، وكان حينها يناهز الستين من عمره، وهي في الخامسة والخمسين من عمرها تاركةً خلفها بيتاً شعرياً من لون« النايل» تقول فيه:

اســـلم وزيـــد الـــسلام ون جيـــت ابـــن عـــوين

وشـــلون ينـــسى الولـــف اللـــي نبـــاهم زيـــن؟

ولم يجمع الرواة على سبب قول هذا البيت حيث نسبت إليه أكثر من رواية، لكن المؤكد في الرواية أنهما لم يتزوجا حتى فارق بينهما الموت.

جاء "الجبوري" إلى "الرقة" باحثاً عمن يرثي له تلك الحبيبة، حيث سمع أن أهل "الرقة" ينظمون لوناً اسمه "موليا"، وعندما علموا بقدومه اجتمعوا معه في مقهى، يحكى أنه كان مبنياً من أعمدة الخشب ومغطى بعيدان السوس، وجلس على كرسي خشبي كبيرقاعدته من سعف النخيل، وبدأ حواره معهم قائلاً:

«علمت أنكم تنظمون لوناً اسمه موليا وهذا اللون لانعرفه، ويقتصرنظمنا

على لوني "العتابا" و"المامر" جئتكم حاملاً قصة حبي،وأبحث عمن يصف لي تلك الغزالة، التي استباحها الصياد، وقد بحثت عن ضالتي في الجزيرة السورية كلها ولم أجدها».

فقالوا له:

صفها لنا ببيت "موليا" وكانوا قد حدثوه عن هذا اللون، وزنه ومواضيعه واسمعوه.

نماذجاً منها فقال:

حبـــر دفـــق مـــن علـــى القرطـــاس عـــين لهـــا

تـــــشبه جـــواز بحمـــــاد رمــــيم عينولهـــــا

حــــط الهتيمـــــي علـــى الميـــراد عـــين لهـــا

قالـــــت لاتـــــاهم حبيبـــــي ربـــــاة شــــرجيّه

فتلاه الشاعر "درويش الكنعان"، والذي كان يجاوره في الجلسة قائلاً:

شـــهد العـــسل مـــن علـــى الكاســـات ريـــج لهـــا

لمـــــن مـــــشت بـــــالنزل طبـــــول رج لهـــــا

تـــــشبه جوازبحمـــــــاده مطالعـــــه رجلهـــــا

شـــــافت هتيمـــــي جفلـــــت بفجـــوج بريــــه

فتلاهما الشاعر محمد الذخيرة قائلاً:

ليلـــو ثنايـــا التـــرف المـــاز..... ســـن لهـــا

يجازيـــــةٍ تــــسجد العـــلام ..... ســــنه لهـــا

الطيـــر الأوشـــح صـــعد بـــالجو ســـن لهـــا

جلجـــل عليهـــا بجنـــاح وحـــراب مدميّـــه

فقال الشاعر الجبوري:

أسرعت بصيدها يا بني: كان بودي أن تتركنا نلهو قليلاً بها وتقول الحكاية أنه قال بلهجته: «**صادها القليم وادعى ريشها ملاة القاع**»

في ذلك المقهى المتواضع تتالى هؤلاء الشعراء على وصف حبيبة "ابن عوين الجبوري"

فقال هو:

«لقد كانت عيناها سوداوين بلون الحبر المكتوب على القرطاس الأبيض ثم بدت كالغزالة التي يطاردها الصياد وفرت منه».

ورآها الآخر: «**كالغزالة الشاردة في الفيافي المقفرة،ريقها كالعسل المنقع في كؤوس شفافة، وهي أشبه بالملوك وسادة القوم، الذين يستقبلون بقرع الطبول**».

أما الثالث فقد قال:

«لقد كانت أسنانها كالماس واللؤلؤ،ويخصها العلماء بصلاة خاصة بها لعفافها،

لكن الطير الجارح حام فوقها، وطاردها،وضربها بجناحيه وأدماها بمخلبيه».

وعلى هامش تلك المساجلة الموافقة تداول هؤلاء الشعراء الألوان الشعرية، فأسمعهم "ابن عوين" بعضاً من نماذج لون "المامر" الذي ينظمونه، وكان يبدأه بقوله "ريام عذبه" فنظم الشاعر "محمد الذخيرة" على نهجه بيته المعروف:

ريـــــــــــــام جـــــــــــــروة واردات ورودي

أركـــــــض وراهــــــن عالنـــــــدى وبــــــــرودي

أشــــــيل صـــــــفي ومــــــوزري وبــــــارودي

قـــــال الهتيمـــــــي هـــــين عانــــــه تـــــذكر

وجروه قرية رقية ترسو على ربوة قرب البليخ كانت تعرف باسم "باجروان".

وعرف هذا اللون مطالعاً عدة فيما بعد أشهرها "أبو الخديد الوردتين"

كانت تلك أول أمسية أدبية يتناقلها الرقيون في لون "المولّيا" وأخذت المقاهي الرقية تحمل أسماء الألوان الغنائية، لاسيما مقهى "موليا" ومقهى "يايما"

والتي وجد فيها ذلك الشاعر القادم من الشرق/ شرق الجزيرة السورية/ ضالته والحامل معه أمواج الحب العفيف المتلاطمة،وأصبح فيما بعد لون "الموليا"، يرتدي ثوب الغزل بعد أن كان سبيلاً للهجاء والمدح وربما السخرية في جانب منه، وأخذ الناس ينظرون إلى هذا اللون بوقار ولازال أهل الرقة يتذاكرون هذه الأمسية ويغنون أشعارها رغم مرور قرن ونيف من الزمن.

المولیا من البيت الافرادي الى المصرع

إذا ما وضعنا أصل التسمية جانباً، ونظرنا إلى بيت الموليا ذي الاشطر الأربعة، نجده وقد كتب بشكلين:

الشكل الأول: وهو الشكل التقليدي لبيت الموليا، أي البيت الإفرادي والذي ورد ذكره آنفاً كقول الشاعر:

يــــا ســـــايجين الـــضعن بــــالله تعيجونـــــوا

معكـــم حبيـــب القلـــب محـــد خطـــم دونــــه

لقعـــد علـــى المنهلـــة الكـــل يـــوم تردونـــوا

وارجـــاك يـــابو زلـــف لمـــن تجـــي ليّـــه

– حيث بدت فيه الأشطر الثلاثة الأولى موحدة القافية. فقد ختم الشاعر الشطر الأول بكلمة "تعيجونوا" والشطر الثاني بـــ "دونو" والثالث بـــ "تردونوا" بينما اختتم الشطر الرابع

بـــ "ليّه". وهو مخير بالروي الذي يريده في الاشطر الثلاثة الأولى، شريطة أن تكون موحدة إلا أنه ملزم بأن يستخدم الياء المشددة والهاء المتروكة في نهاية الشطر الرابع وعلى الأغلب تستخدم الكلمات التالية في نهاية الشطر الرابع (بنيّه – بيّه – جمريّه– عليّه – بريّه – شرقيّه – ميّه) كونها الأقرب إلى لفظ الموليّا.

الشكل الثاني: ويسمى المصرع بكسر الميم وتسكين الصاد وفتح الراء، وتستخدم هذه الكلمة للدلالة على التماثل والتوازن، وهي مأخوذة من حمل البعير أو الدابة، حيث يتوازن ويتماثل الحمل حتى لا يتداعى، وهو أي المصرع أبيات افرادية متتالية ثلاثة أشطر موحدة الروي وشطر رابع مقفل بياء مشددة وهاء متروكة، ثم ثلاثة أخرى موحدة الروي وشطر رابع مقفل بياء مشددة وهاء متروكة، وهكذا لتبدو كالسلسلة المترابطة يلتزم خلالها الشاعر ببدء بيته الثاني بالكلمات الأولى من الشطر الرابع الذي يسبقه. وهكذا فالثالث والرابع حتى اختتام القصيدة - إن جاز التعبير- كقول الشاعر علي الكلاح:

لي سار نجم السما تيسر وساري	**أمشي واخف بالجدم وآخذ باليساري**
ليّ حبيبٍ مضى اسمه باليساري	**يهلن دموعي على لذة معانيّه**

* * *

يهلن دموعي بقيت أندب على حالي	**سريت واصبحت أنا بسعون وجبال**
شكيت أمرٍ جرى لمدبر الحالي	**يشيب راسي على فراق الرداحيّه**

* * *

يشيب راسي رماني الدهر وغثاني	**عالريمة الغيرنا ما باسمت ثاني**
همي مقنطر يا خلي والسعد فاني	**سيف مجوهر رماني الدهر عاريّه**

يعتبر المصرع النموذج المطور من الموليّا، حيث يلجأ إليه الشعراء عندما لا يتسع البيت الواحد لأفكارهم التي يريدون قولها ،ومن أشهر الشعراء الذين أجادوا في نظمه "محمود الذخيرة" بقصيدته "الرعدة"، زيد الهويدي بقصيدة "الفرز"، وعلي الكلاح بقصيدته آنفة الذكر.

ونحن بصدد الحديث عن شكل الموليّا، لابد أن نشير إلى أن بعض الشعراء نظموا القصيدة الهجائية من الموليّا. وهي القصيدة التي تتكون من

ثمانية وعشرين بيتاً وهي تنظم مسلسلة وفق الأحرف الهجائية ومن الشعراء الذين اهتموا بهذا الجانب الشاعر "فصيح الملا أحمد". و"عبد الرحيم الشويمي" ونظموا على منواله.

حيث يذكر الحرف المراد البدء به، ثم يأتي الشاعر بكلمة أولها ذات الحرف كقول الشاعر:

الواو - ولف الجهل اليوم لاحولي	**مالقى تواصيفها يمهم و لاحولي**
نذرٍ يلو يحق لي زريف الطول لاحولي	**سبع مراحل خلا ما أذوق أنا الميّه**

وبذلك تبدو الثياب التي ترتديها الموليّا زاهية ومزركشة بلون الحب، وشكل النسيم ونسمات الفرات الذي يسري ماؤه في عروقنا نحن أبناءه ومحبيه.

المدخل الثنائي لبيت الموليًا

من المعروف أن بيت الموليا ذو أربعة أشطر، أشطره الثلاث الأولى موحدة الروي، والشطر الرابع مقفل بياء مشددة وهاء متروكة، كقول الشاعر:

كبيـت جـود الظمـا أوهمـت بـاللال　　　يـدمع عينـي علـى الوجنـات بـلال

سـاهرت ماسـاهر البلبـل. بهالليـل　　　ومساهر الجوري تايشرب عذي ميَه

هذا هو الشكل التقليدي لبيت الموليا، لكن شعراءها في بعض الجوانب، زخرفوا أشعارهم، فنجدهم يستخدمون الجناس والطباق والطي والنشر، كسبل معتادة للزخرفة، بيدأنهم ابتكروا فناً جديداً في زخرفة بيت الموليا، حيث انفرد فيه هذا اللون. ويتمثل بتنصيف الشطر الأول إلى نصفين متماثلين لفظاً ووزنا ومعنى مما ميز الأبيات التي ورد فيها بميزة لحنية فريدة كقول الشاعر:

وردن علـــى الخـــابور وردن علـــى الخـــابور

مـــدري بنـــات عنـــزة والا بنـــات الجبـــور

مـــن حـــسنهن يـــاخلق ظـــل الظهـــر مكـــسور

عكـــاز بيـــدي وابـــاريهن علـــى الميـــه

حيث تكررت كلمة /وردن على الخابور/ مرتين في الشطر الأول وبذات السبيل يعود آخر لوصف اللائي وردن الماء، وكيف شربها معهن فيبحث عمن أحبه ولم يجده بينهن فيبكي حتى يجف رأسه من الدموع:

وردن علـــــى مـــــاهن وردن علـــــى مـــــاهن

وســــجيتهن بالجــــدح وشــــربت أنــــا معـــــاهن

دحجـــــت بـــــالمنظرة ولفــــي مهــــو معــــاهن

بكيـــــت لمــــن صـــــفا راســـــي مــــن الميـــــه

ويصف لنا الحطابة. تلك التي جمعت الحطب وحملته وكوَت قلبه بالنار، وكيف كان اليوم الذي خطبت فيه:

بـــالزور حطابـــا بـــالزور حطابـــا   شـالت حطبهـا وكـوت قلبـي بعطابـه

اليـوم الأقـشر يـوم لفـوك خطابـه   لاكـط راسـي واخمـش الوجـه بيديـه

كذلك حظيت ابنة جاره بالوصف أيضاً:

يابنـــــت جـــــارٍ لنـــــا...... يابنـــــت جـــــارٍ لنـــــا

ياريـــــت عيــــون الكحـــــل تجــــي تقابلنـــــــا

لـــــو مــــا نيـــران ولهــــب لاجــــي ولا أتعنــــى

ولا مــــــشيت الــــــدرب وأتعبــــــت رجليـــــه

وجميلة تلك السمراء المحزمة، التي رآها فوق جبل ياسين،وهي التي أوقعته بالحب ويطلب إليها،أن تدلي له حبلاٍ لتخرجه من ذلك البئر، وإن لم يتوفر فلتكن ضفائرها كونها بطول الحبل:

من فوق ياسين من فوق ياسين   ومحزمــه بــالكمر حــدر القيــاطين

وقعت ببير الهوى سمرا تطلعيني   وان جاد مامش حبل دل الزلف ليه

كذلك ينال الوصف اللائي تناثرن فوق الأبنية العالية فالسمراء تشبه العود المستورد والبيضاء تشبه عود الحور والجميلة تكتب لشدة فراستها:

مــن فــوق عــالي الــدور مــن فــوق عــالي الــدور

ياتـــــاركين الـــــصلاة بـــــاكر علـــــيكم دور

الـــسمر عـــود الجلـــب والبـــيض عـــود الحـــور

والزينـــــــة تكتـــــــب ورق زود الفروســـــــيَّه

بين هذه وتلك نقلنا الشاعر الفراتي كيف شاء، مرة إلى الخابور، وأخرى إلى الزور، تلك المنطقة المحاذية للفرات، كذلك إلى الأبنية العالية، لنرى صورة ونسمع أغنية، ونشدو ونترنم ونلهو، كما في أيام الطفولة وبداية الصبا تحيط بنا نسائم قادمة من نهر عظيم اسمه الفرات.

الجناس في الموليّا

يُعرَّف الجناس – في علم البديع – بأنه تشابه اللفظين في الصورة، واختلافهما في المعنى، ومن أشهر أنواعه: الجناس التام والمطرِّف والجناس اللفظي والمركب والملفق والمقلوب.

ومن حيث أنَّ الشعر الشعبي – باتفاق أغلب دارسيه – يكتب كما تكتب الكتابة العروضية فإنَّ دراستنا له ستقتصر على الجناس التام وحسب، وقد برزت ظاهرة الجناس في العتابا وشقها الآخر الأبوذية، لكنها وردت ضمن قوالب محددة إذ أنها ترد في نهاية الأشطر الثلاثة الأولى. حيث تأتي الكلمات الثلاث الأخيرة فيها متشابهة في اللفظ ومختلفة في المعنى، كقول الشاعر من لون الأبوذية:

علامك تحمس بروحي علي مُر   أهيم وصار مشروبي علي مُر

أنا يوم ٍسار مضعونك علي مُر   غدت شمس الضحى ظلما عليَّه

فـــ (علي مُر) في الشطر الأول يعني بها الشاعر على أيِّ أمر؟ .

وفي الشطر الثاني يعني بها مرٌّ مذاقه عليَّ، أما الثالثة فيعني بها مرَّ بي.

وإذا ما بادرنا إلى تقفي هذا العلم البديعي في لون الموليّا، لوجدناه نادراً حيث ورد في نماذج معينة من هذا اللون، مثل الأبيات التي تبدأ بـــ أبو شفافٍ بدن حسين... حيث ورد الجناس فيها يلبس ثوبه الذي رأيناه في اللون المذكور كقول الشاعر:

أبو شفافٍ بدن حسين غطنه   عجدين جوهر بزيج الثوب غطنه

بطرف ردنك حبيب الروح غطنه   تا يريع بالي وأقول المجبله هيَّه

فقد جاءت كلمة (غطنه) في الشطر الأول بمعنى (غمرن) وفي الشطر الثاني بمعنى (خبأن) وفي الشطر الثالث بمعنى: أشرْ لنا.

كما أن بعض شعراء الموليّا اختصوا بهذا الجانب، بل وبرعوا فيه ومن هؤلاء الشعراء الشاعر فصيح الملا أحمد ،الذي لم يخلُ أي بيت موليّا يُنسب له من الجناس، الذي لم يرد بتكلف، وإنما جاء منسوجاً بإتقان كرسومٍ متشابهة في سجادة نادرة النظير، وقد جاءت قصيدته الهجائية التي وردت مطالعها متسلسلة وفق الحروف الهجائية كلها مبنية على الجناس.

الـــواو ولـــف الجهـــل يـــا خـــوي لا حـــولي

مـــــالقى تمـــــاثيلهن يمكـــــم ولا حـــــولي

والله إن حـــق لـــي زريـــف الطـــول لا حـــولي

ســـبع مراحـــل خـــلا مـــا أذوق أنـــا الميّـــه

فـــ (لا حولي) في الشطر الأول بمعنى رأيتهم، وفي الشطر الثاني بمعنى بقربي، وفي الشطر الثالث بمعنى لأعبرنَّ، وربما يقصد بها الحول أي سنة كاملة.

ومن شعره في ذلك أيضاً:

ورسٍ دفـــق مـــن علـــى الفنجـــان شـــف لهـــا

لـــون البريـــسم شـــعق بالـــدل شـــف لهـــا

جـــابم طبيـــب الهنـــد بالـــصدر ... شـــف لهـــا

تـــروي دمـــاغٍ لفـــاه الكيـــف عـــشويَّه

و(شف لها) في الشطر الأول تعني ارتشافة، وفي الشطر الثاني تعني شفة لها، وفي الشطر الثالث تعني رأى لها.

ولم تخلُ أبيات المولّيا التي نظمها محمد الذخيرة أيضاً من الجناس، ومن خلال دراستي لشعره من هذا اللون وجدت فيه هذين البيتين:

ليلـــو ثنايـــا التـــرف المـــاز ســـن لهـــا

يجازيـــةٍ تـــسجد العـــلام ســـنه لهـــا

الطيـــر الاوشـــح صـــعد بـــالجو ســـن لهـــا

جلجـــل عليهـــا بجنـــاح وحـــراب مدميّـــه

فكلمة (سن لها) في الشطر الأول تعني سن لها، أي: من أسنانها أما الثانية الواردة في الشطر الثاني فتعني (سنةٌ لها)، أما الواردة في الشطر الثالث فتعني (حام)

و:

أم الكـــذل الـــشقر عالـــصدر ظفرانـــي

أتبـــع ضـــعنهم إن كـــان الهلـــب ظفرانـــي

إن جـــاد بينـــي وبينـــك جمـــع ظفرانـــي

لابـــد مـــن وصـــولكم لـــو ينـــشهر..... بيَّـــه

وتعني ظفراني في الشطر الأول مجدولة وفي الشطر الثاني حافية بلا نعل وفي الشطر الثالث منتصرة.

وقد وردت أبياتٌ من هذا اللون تحمل بين طياتها نماذجاً من الجناس، منها ماهو مجهول الهوية كقول الشاعر:

الريمـــة الـــساكنه بـــالس وردتـــين

اللـــي ضـــمنت لـــي مـــن الجـــوري وردتـــين

عاداتنـــا بـــالهوى نـــارد ... وردتـــين

وحـــده طلـــوع الفجـــر وحـــده عـــشاويَّه

فالأولى تعني الردتين، وهما موضعان قرب بالس على الفرات ،والثانية تعني وردتين والثالثة تعني مرتين.

ومنها من كان نظماً لبعض شعراء الموليا، كـ محمود الذخيرة وزيد الهويدي، وسنتعرض فيما يلي بيتاً من لون الموليا للشاعر محمود الذخيرة:

نرشـــف بـــصافي الهـــوى كاســـات ســـلواني

يـــا مـــن هـــواهم كمـــن بالـــضلوع ســـلواني

زاهـــد بحـــالي وربـــي ليـــه ســـلواني

آنـــي وبـــوم الحـــزن نـــنغط سواســـيَّه

وتعني كلمة سلواني الأولى كأس السلوى التي تسقى للعاشق لينسى هواه، والثانية من السل والثالثة من النسيان.

هذه بعض نماذج الجناس في لون المولّيا، وقد أوردتها في سبيل الذكر لا الحصر، والذي ألبس هذا اللون ثوباً زاهياً براقاً بلون الربيع ولون وروده، والذي استمال حناجر هواة الغناء الفراتي، ونواظر متتبعي الشعر الشعبي الفراتي وناظميه ليبدو لهم كقطعة ذهبية نادرة أضاعتها السنون يوماً في تلة مترامية على سفح منسي فوجدها عالم آثار هكذا صدفة بلا موعد.

الإيحاء والموارأة في الموليا

كانت العرب تذكر في الشعر اسم الفتاة المراد وصفها أو التغزل بها صريحاً يقول امرؤ القيس:

أفــاطم مهــلاً بعــض هــذا التــدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فـأجملي(١)

ويقول عنترة:

يــا دار عبلــة بــالجواء تكلمــي وعمـي صباحاً دار عبلـة واسلمي(٢)

ويقول طرفة:

لخولــةَ أطــلالٌ ببرقــة ثهمــد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ(٣)

ومع أن هذه الظاهرة اضمحلت إلى حدٍّ ما في صدر الإسلام والعصور اللاحقة إلاَّ أنها لم تختف تماماً.

يقول جميل بثينه:

وأول مــا قـــاد المـــودة بيننــا بــوادي بغـيض ٍ يــا بثــينُ ســبابُ

وقلنــا لهــا قــولا فجــاءت بمثلـه لكـلِّ سـؤال ٍ يـا بثـينُ جـــواب(٤)

---

(١) صبح الأعشى / ج١ / ٢٩٨/.

(٢) أخبار مكة / الفاكهي/ ج٦/ ص٣٦٨/.

(٣) التحرير والتنوير /ج١٠/ ص٤٢/.

(٤) الأغاني / ج٢/ ص٣٤١/.

وإذا ما قففنا هذا الأثر في الموليًّا الفراتية، فإننا لا نجده لأنه يختفي تماما، وما ذكر بعض الأسماء فيها إلا حالات نادرة، وخاصة. كأن تكون الموصوفة ابنة لشاعرة، أو كأن تكون حديثة السن، حيث لا يسمح النظام العام بذكر اسم الفتاة المراد وصفها، فيستعيض الشاعر بكلمة

(الولف أو الغوالي، أو الخلّان، أو حلو النبا، أو ولف الجهل)

لكنه لم يقف عند هذا الحد، بل إنه يجد نفسه حيال ذلك مجبراً على ذكر اسم الحبيب أحياناً، فيقع بين فكّي النظام العام والرغبة في ذكر اسم الموصوفة، فلا يجد مخرجاً من ذلك إلا الإيحاء، أو المواراة أو كليهما معاً عندما يريد ذكر اسم (سارة) فإنه يقول (اسمه باليسار):

لـي سـار نجـم الـسما تيـسر وسـار   أمشي وأخـف الجدم وآخـذ باليسار

ليَّـه حبيـبٍ مـضى اسـمه باليـسار   يهلـن دمـوعي على لـذة معانيَّـــــه

وقد يميل إلى الغموض أكثر حين يشير إلى السلاح ومروره بالقوم إشارة إلى الحرب قاصداً اسم (حربة):

اسمك من اسم السلاح المرنـا وراح   شـالم شـيوخ العـرب طـوال الرمـاح

شـبهك غـزالٍ شـرد وارد عـالمواح   قبـل مايغيـب القمـر قاصـد مفاليَّـه

أما (الوضحاء) فيرمز لها تارة بالنور الذي يعقب الفلق:

آنـي جتلنـي مـن اسـمه للفلـق تـالي   بكرة عنود بحمى المصقاط والخالي

لي شرعبت بالرسل تشم الهوى العالي   عنــود مــا تنتــرك واطبــاع نجديَّــه

وقد يشير إلى أصل التسمية دون أن يلفظ الاسم فيشير إلى الناقة التي تسير في أول الإبل والتي يطلقون عليها اسم (الخلفه):

آنـي جتلنـي مـن اسـمه بـاول الـذّود   حنّـت علـى حوارهـا بفـروع وورود

ماقدر على وصولها لاني ولا نجودي   همـي رحل مـا يـشيله هديب شرجيّه

وبأشعة الشمس تارةً أخرى:

الـنفس مـاتنتهي مـن الـهـم يـا رحـيم   **النـار بـرد وسلاما بـس علـى إبـراهيم**

شوقي بقصة الشمس وآني بحرف الميم   **و اثنينـــا بـــالهوى نطعـــن بـــسريّه**

– وقد تكون صريحةً بذكر الحرف الأول والثاني من الاسم:

آنــي جتلنــي بحـرف الـواو والـضاد   **اثنــين حــرمن علــيَّ النــوم والــزاد**

مكسور ضلعي ترى لا تكرب شدادي   **كلمـا يطيـب الجـرح لـي تلكمـو ليَّـه**

– وليس هذا كل ما قيل في الموليَّا من المواراة فقد رمز لفاطمة بخوف الرضيع من الفطام ورمز

لتركيه بالدولة الآفلة ورمز لمريم بتكرار حرف الميم بذات الاسم.

وظهرت لنا بذلك سمة جديدة للموليَّا وثوبٌ زاهٍ تجر أذياله ناصعٌ بلون الصدق و شذيٌ برائحة المسك وقد أجاد شعراء الموليَّا نسجه وصبغه، ليبدو لنا غبطةً تحتوي أنفسنا حتى ترتوي بهجةً وسروراً وتشع أملاً أسموه ذات يومٍ شعر.

الطرديات في الموليا

تُعرَّف الطرديات بأنها شعر يصف الصيد وما يرافقه، وأول من ابتكر هذا الفن هو الشاعر الجاهلي امرؤ القيس، وتبعه في ذلك النابغة الذبياني، ولم تتخذ الطرديات جانباً مستقلاً من الشعر حتى جاء أبو نواس فاستقلت الطرديات على يديه، وذلك لكثرة وصفه للصيد والمطاردة، كونه كان قد عاشر الأمراء، ورافقهم في رحلات صيدهم.

ومن حيث أن الشعر الشعبي الفراتي من سلالة الشعر العربي الفصيح فإننا نجدهما يلتقيان في جوانب عديدة كالصورة والتشبيه والبيئة إذ لا غرابة إذا ما وجدنا أن للطرديات أثر فيه، وسنقتفي هذا الأثر في لون الموليَا اللون الأكثر تنوعاً بين ألوان الشعر الفراتي لنجد الشاعر بصورة الصياد والحبيبة بصورة الغزالة ولكن بصور متباينة.

فنجد هذه الغزالة ذات الأسنان اللؤلؤية والماسية بين مخالب النسر المدماة:

ليلـو ثنايـا التـرف المـاز سـن لهـا **يجازيـة تـسجد العـلام سـنه لهـا**

الطير الأوشح صعد بالجو سنى لها **جلجل عليها بجناح وحـراب مدميَـه**

ومع أنه يجيد صيد الغزلان منذ حداثة سنه إلاَّ أن صيد تلك الغزالة الشاردة أعياه:

سافن جناب الدليل ضليل من شوفي **على وليف القلب هو الحرق جوفي**

من زغر سني أصيد ريام وخشوف **ألا غـزالٍ شـرد معـد يحقـل ليـه**

وهي من غزلان منطقة الخرس اللائي شربن ماء صافياً حتى ارتوين ولا يمكن للصياد أن يصيدها:

يروي الرياض الجرز من مبسمو للاه محشوم عن كل ردى واللاه عنولاه

كنها ضبايا الخرس اليقنصوه مالاه فـرز تـنحن وجمـن صـافي الميَّـه

إلاّ أنه لا يلبث أن يتمكن من صيدها في تلك الروابي والمنحدرات وهو يخشى عليها أن يخيفها آخر:

قنــصت ريــم المهــا بــارض الحنــو والرجــل

خــوفي مــن المحــضة ومــن العفــن تجفــل

مــا قلــت لــك يــا ولــد راس الــصدر فنجــال

والخــد مثــل الفنــار ياضــي بعليــه

وسيمتطي جواده ذا الأرجل المفتولة والذي يطوي البوادي طياً لشدة سرعته:

لا شــد واركــب علــى مفتــول الــذراعي

يطــوي البــوادي ورفيجــو بــالفلا ســاعي

دحــج شــمرت هنــوف عيونهــا وســاعي

أظــن أنهــا تلفــت عينهــا......ليــه

ولن يكون ذلك في الأحوال المعتادة بل سيكون باكراً وسيبحث عن تلك الغزالة التي رفضت أن يصيدها آخر دونه:

أركــب جــوادي ورا الكــواك واســري بــو

عالريمــة المتعبــة القــانوص تنحــي بــو

لظـــل برجـــوى الولـــف لمـــن مـــشط شـــيبو

تيبـــين علـــم الـــصدق مـــن ابـــن الحموليـــه

وأنها لجازية جفلى وأتعبت ذلك الصياد الذي يريد صيدها ولم يتمكن منها:

جازيـــة جفلوهـــا صـــليب مالاهـــا   عالريمـة المتعبـة القـانوص مالاهـا

محبوبتي لـي مـشت يـا حلـو ملقاهـا   نافـت علـى اللـولحن عالخـد تركيَـه

ثم يصف لنا الناقة التي يمتطيها، فهي ذات " شداد شامي" تشبه نعامة البريد المرسل ما بين الشام والجوف:

اركب لجيـة الفحل وشدادها بجوفي   تـشبه نعامـة بريـد الـشام والجـوف

لمن قالوا لـي سرى مبسول الزلوف   النـار بقلبـي سطت من غيـر جمريَـه

اضـرب البيـدا علـيهم فـوق مياحـه   شـداد شـامي عليهـا شـعور طفاحـه

لوهـب ريـح الـصبا مـن يمـه وفـاح   شميت ريح الـصبا من بـلاد شـرجيَه

وقد تكون تلك الغزالة هي التي جرحت الصياد وأدمته:

الريـام جنـه كـرن وردن علـي يـا عـم   بيهن نجود طعنتني ومـا ظهر لـي دم

تلايمـن وجفلـن فـزن وجمـن جـم   أركـض وراهـن واخملهـن ولـف ليَـه

ولم تكن هذه منازل الطرديات في المووليا فحسب بل إنها كانت كثيرة وما أوردته لم يكن إلاَ للإشارة فقط ومن يبحث في المووليا يجدها كثر ويجد السيل والربوة والغزالة والفرس مكللة بالنسيم الفراتي العليل كشعره والمتدفق كما هو الفرات حباً وجوداً وعطاء وأمنية.

المساجلات الشعرية في الموليّا

المساجلات: (تعريفها): المساجلات حواريات شعرية غير مباشرة، وليست متواقتة، وهي أقرب إلى المعارضات، كما أنها إحدى فسيفساء لون الموليّا، أبياتها موحدة المطالع وهي عرض من عروض المبارزة التي مارسها الشعراء الرقيّون في هذا اللون من ألوان الشعر الفراتي.

المساجلات (شكلها): ينظم الشاعر بيت الموليّا على أربعة أشطر – كما هو معروف – فيأتي الشاعر المساجل فيأخذ من الشطر الأول كلمة أو كلمتين أو أكثر شريطة ألا تكون الكلمة الأخيرة من بينها، وأن تكون هذه الكلمات متتالية، حيث لا يجوز للشاعر القفز أثناء انتقاء الكلمات ثم يتمم بيته كيفما يشاء.

المساجلات (أنواعها)

للمساجلة ثلاثة أشكال:

١- المساجلة المخالفة ٢- المساجلة المساعدة ٣- المساجلة الموافقة

١- المساجلة المخالفة:

وهي المعارضة بمضمونها فكرة البيت ويبتغي الشاعر من خلالها نفي ما ورد فيه، ومن أشهر المساجلات المخالفة مساجلة (السلسبيل الجرى)

والتي ابتدأها الشاعر بقوله:

السلسبيل الجرى ناسول و اسقاني ... ما ذاق مبسم عفيف النفس بس آني

آني يا أخوك شفت من كودهن ساني ... حالن أوراقي على حكم التهاميّه

وأجابه آخر بقوله أن السلسبيل لايوجد إلا في الجنة وأن هذا المطلع للشاعر نمر بن عدوان:

السلسبيل الجرى مذكور بالجنة ابد خطايب خلف للبيت ما جنه

هلو غربي مسكنه وخراب جننه هذي طريدة نمر وضحه خلاويّه

بينما يرى آخر بأن هذا الموضع ليس موضعاً للسلسبيل حيث يقول:

السلسبيل الجرى ما هو بهذا الشأن يذكر بجنة الخلد عند حوار الجنان

ما قلت لك يا ولد عقب المدلل بان احذر عن الشين ولا تقرب مناحيّه

ثم يأتي من يريد التقريب بين هذه الآراء المتناقضة ليؤكد بأن الماء السلسبيل مذكور في الجنة ويدعو إلى العذرية في الحب:

السلسبيل الجرى مذكور بالخلدِ الرميم و العامري مجنون و الوردي

خاضم ببحر الهوى ما باحم السدِّ وأنت من بوسة حبيب تسيح داليّه

ويختتم هذه المساجلة الشاعر محمود الذخيرة بقوله:

السلسبيل الجرى نبع الوسيلة عيون ريج المدلل شفه للبيه مس جنون

إلنا عليهن تبل من دور ابن زيدون اللي ظلمنو بسجن ما بيه رجاويّه

٢- المساجلة المساعدة:

وهي التي يلجأ إليها الشاعر إتماماً لفكرة واردة في بيت ما، ويبتغي فيها الإتمام أوالتوضيح والإضافة أحياناً، ويبدو هذا النوع في التجانس كأغصان الشجرة حيث يظهر أكثر تشابهاً وتوافقاً مثل:

لا قنص ريام تنحن وبتلن عني بعد الجوازي يا سيد الكيف ول عني

وحده خذوها غصب وحدة بتلت عني وحدة عليها لا بيع الروح والنيّه

والذي أردف بقول الشاعر:

لا قنص ريام تنحن وبتلن بفروع	**أشوف شرح الادارة وبصدرها مطبوع**
عساف شمر حبيبي يلوق له بكل طوع	**صد التفت لي كضبت الشاه بيديّه**

وعلى الغالب تتم هذه المساجلة بين الشاعر وذاته.

٣- المساجلة الموافقة:

ويختلف هذا النوع عن سابقيه بعدم استخدام كلمات المطلع، حيث يؤيد فيه الشاعر فكرة البيت أو يشير إليه مثل:

أركد يا عود السعف هيمتني بيهم	**أهل الفصال الحلو حلوة معانيهم**
قلبي على خلتي مكدر وبيه هم	**حمل الغيوم اللفت من صوب غربيّه**

والذي وافقه آخر بقوله:

قلبي بحال السعف الواصفوه محمد	**كل هكوتي بالجدم عليك متعمد**
سايم عليك النبي يا وليد لاتعنّد	**اكرب رسن مهرتك هاللي عزمت بيّه**

ويبدو أن هذا البيت أنثوي النظم، حيث تشكو فيه الشاعرة من هجر الحبيب، وتطلب منه المساعدة، لأنها أمست كمن يمتطي مهراً حديث العهد بالركوب، وأخذ يعدو بها بجنون.

ومن حيث أن المساجلة فنّاً من فنون الموليّا، فلقد كان فنّاً رائعا وظف في المساعدة على حفظ البيت في صدور العامة، وتسهيل نقله من شخص لآخر، عندما كانت الوسائل الإعلامية ليست كما هي الآن، وتظهر فيه ميزة يختص بها لون الموليّا فقط، وهو شعور المستمع أو القارئ له بأن هذا اللون نظم من قبل شاعر واحد، ولهذا نجد شاعر الموليّا يبذل قصارى جهده بالبحث عن الكلمة الرزينة التي تتناسب والكلمات التي استخدمت سابقاً في هذا اللون وإلا فما عليه الا السكوت أو إخفاء ما ينظم.

لا تتقيد المساجلة بسقف محدد أو عدد محدد أو زمن ثابت، فهي مشرعة الأبواب دائماً، ومع أنها ملجأ للشعراء الذين لازالوا في بداية النضج الموهبي فلم يقتصر السجال عليهم بل أن الشعراء الكبار يساجلون أيضاً في حال إعجابهم بالمطلع، وإن كانوا قادرين على نظم مطالع جديدة ومن مطالع المساجلة في لون الموليّا:

(مكتوب منك لفى – أبو شفاف بدن حسن – الريمة – كبيت جود الظما – اكتب واذر بالورق – ظليت اعد النجم – لاضرب البيد عليهم).

هذه تجربة المساجلات في لون الموليّا، اللون الذي أخذ من الأهمية بين صنوف الشعر الفراتي ما أخذت المعلقات من الشعر الجاهلي، والتي لازالت تجري في عروقنا، وتهمس بين أنفسنا.

الشفاف ودن حسين في الموليا

للوهلة الأولى يبدو لقارئ لون الموليا أن الشفاف جمع مفرده شفة فيقع أغلب الباحثين في هذا المطب، سيما وأن هذه المفردة تستخدم في بعض المناطق الفراتية بهذا المعنى. فضلا عن أنها تضاف إلى كلمة [أبو] التي يعني بها الفراتيون [ذو] فيقولون:[أبو الشفاف] أي ذو الشفاف

أما ما يقصد بها في لون الموليا، فهو الغزل المطوي بشكل كروي، وهي كلمة فصيحة، (راجع في هذا الشأن المنجد في اللغة والإعلام) وعلى الغالب لم ترد هذه المفردة في ألوان الشعر الشعبي الفراتي الأخرى، حيث وردت في لون الموليا حصراً، وتعرف عاميّاً ب: بكرة الغزل وإذا ما بادرنا إلى البحث عن منازل هذه الكلمة في لون الموليا، يبدو لنا جليّاً أن هذه المفردة استخدمت بالمعنى الذي أشرنا إليه أي الغزل ويظهر لنا ذلك في قصة الشاعر، الذي تنسب إليه أبيات الموليا التي تبدأ ب: أبو شفاف ... بدن حسين.. والذي صادف وعلى ما يبدو حبيبته وهي تصبغ غزلها لدى الصَباغ حسين الذي يذكر اسمه في كل بيت من أبياته وهو صباغ كان معروفاً في مدينة حلب وكان الفراتيون يقصدونه لصباغة الغزل حين كانت مدنهم الحالية قفراء ليست كما هي عليه الآن والدن الذي يذكره الشاعر إناء يوضع به الغزل بغية صبغه بالمادة التي يحتويها فيبدأ بوصفها عندما يغرق الغزل في الدن، ويتحدث عن حبها الذي غرق بأحشائه كما هو عليه الغزل الذي يصبغونه:

أبـو شـفاف بـدن حـسين... غرجـاني **يامن هواهم بخمص احشاي غرجاني**

يعـيش كـف الولـد بالنيـل غرجـاني **كماي بين...... المناهل بسنة وسميّه**

ثم يستغرب كيف يكرر صباغة الغزل مرة أخرى ذلك الذي لم يرتق إلى قلبه غيره والذي احتوت شفتاه مزيجاً من رائحة الصندل، وماء الورد، والخضيرة، والجوري:

أبو شفاف بدن حسين......... ماعله **غير المدلل.. بخمص احشاي ما عله**

من شهد ريجك ياحلو الطول ما عله **صندل ومي ورد. وخضيره وجوريّه**

ثم يعل غزله مرة أخرى ذلك الذي يعلو صدره عقد من الجواهر، والذي جعل الشاعر مثل مجنون ليلى شارد الذهن، فاقد الرشد، ولا يقوى على إعادة رشده المداوون:

أبو شـفاف بـدن حسين...... معلولـه **عجـدين جـوهربزيج الثـوب معلولـه**

هـن الـدعني مثـل مجنـون مـع ليلـى **عقلـي شـرد مايردونــه..... مرنديَــه**

ثم ينتهي الحبيب من الصباغة ليعد الغزل للتجفيف، ذلك الحبيب الذي تجعل رؤيته الهم والحزن يرحلان من القلب الموجع:

أبو شفاف بدن..... حسين غط وشر **عجدين جوهر بزيج الثوب غط وشر**

ما قلت لك. ياولد ملا شعندي شور **تنـصالح البـيض. والـسمر الرداحيَــه**

ولم تكن هذه الصور التي رسمها الشاعر فقط بل أنه نقل الكثير:

أبو شفاف بدن حسين غطنا...........

أبو شفاف بدن حسين والجيران........

كما أن ناظمي الموليّا تأثروا بهذا القالب الشعري اقتداءً بأسلافهم فمنهم من قال:

أبــو شــفاف بــدن حــسين مجــدلهن **عجدين جوهر بزيج الثوب مجدلهن**

أبــو جعــود دعــث اثنيــن مجــدلهن **سماط الكحيــله فزعت بطـراد ملِيــَه**

وبذلك تكون هذه الصور قد وردتنا بريشة الشاعر الفراتي، الذي أبدع بنقلها حيث تتناهى جمالاً، وتألقاً إذا ما ترنمت بها بلابل الفرات، وشدت بها أغصان الصفصاف والحور البري.

الهيام والدليل والبوم في الموليّا

تترامى الأحزان، وتتحطم الآمال، وتجتمع المصائب، في قعر قلب الشاعر عندما يشعر بأن إحساسه قد لمسه القدر بشيء من الأذى، فيبدد أحزانه باللوم الذي يرميه تارة، على الأصدقاء ومرةً على الأقارب وعلى الأغلب على النّمام، وقد لا يسلم الحبيب من هذا أيضاً، أما إن عجز عن إيجاد من يلقي عليه باللائمة فإنه يرميها على القدر فيقع الشاعر بين الهيام تلك الحالة من الحب وقلبه الذي يرمز إليه بـــ (الدليل) ودوي البوم الذي يملأ صداه الأفق فنجده في لون السويحلي يتساءل عن سبب نعيب البوم فيقول:

اشــبيك تــدوي يــا بــوم تــالي الليــل ما راح لك شي ولا مس دليلك ضيم

أما في لون النايل فانه يطلب من الحبيب الامتناع عن الصعود إلى المرتفعات حتى لا يجد الحزن الذي تركه البوم لهما:

قــولم لولــف القلــب العلــو لا يــشباه البــوم عــاف الحــزن لقلوبنــا خــلاّه

ومع ان اغلب الألوان الشعرية الفراتية لم تخل من ذكر للحزن والبوم وعذاب القلب، بقيت هذه الظاهرة أكثر وضوحاً في لون الموليّا فنجد الشاعر يغرق قلبه بالهيام إذا ما سمع نعيب البوم فيسهر حتى الصباح ويطلق زفرات الأنين في آخر الليل عندما يبدأ الفجر بالشروق لكنه لا ينسى ان النسوة في يوم ما أضعن قبله كثيرين من شهداء الحب العذري، لا سيما (رميم) الذي بقي ينتظر حبيبته حتى العام التالي.

يهيم دليلي نغيظ البوم لو صاح **عنيت لك بالدجى لمن الفجر لاح**

هن ضيعن قبلنا عامر والوشاح **ورميم ظل بوعدهن للحول عالميّه**

كما يهيم قلبه حباً إذا سمع البوم ينعب إبان غروب الشمس وهو يذكر حبيبه كلما هب النسيم ويتساءل إن كان عاتباً عليه أم لا، فإن كان كذلك، فإنّ كل ما لديه من عتب يلقي به أمام عتب الأحبة لأنه لا يقوى على حمل عتبه ولائمته لأنه كنور عينيه.

يهيم دليلي نغيظ البوم وقت غروب **كلما يهب الهوى عنيت عالمحبوب**

إن كان عندك زعل آني زعلي مكبوب **ما أقدر أشيل زعلك يا نور عينيّه**

كما أنه يهيم أيضاً إذا سمع صوت البوم فيمسي كالسكران من شدة النحيب والبكاء على فقدانه لذلك الحبيب الذي سقاه القهوة وارتشف منها حتى سلب النوم عقله بعد المساء:

يهيم دليلي نغيط البوم بنعايا **وبات ليل الدجى سكران بنعايا**

يوم الملاقى سقاني الزين بن عايا **وشربت لمن خذاني النوم عشويه**

وإذا ما قيس حزن الشاعر بحزن البوم فان حزن الشاعر أقسى من حزن شهداء الحب العذري ومن البوم أيضاً (حديه):

ضيعت كل العقل امشي همل بالسوق

لا باري ولف القلب لي حنت أم النوق

شما حزنت أهل الهوى حزني عليهم فوق

الرميم والعامري دراج وحديّه

لكنه لا يلبث أن يتساوى مع البوم في حزنه فالبوم ينعب والشاعر ينحب وكلاهما امتلأ رأسه بكاءً وحزناً ولم تفارق الحسرة عينيهما.

نرشـــف بـــصافي الهـــوى كاســـات ســـلواني

يـــا مـــن هـــواكم كمـــن بالـــضلوع ســـلواني

زاهـــد بحـــالي وربـــي ليـــه ســـلواني

آنـــي وبـــوم الحـــزن نـــنغط سواســـيّه

آنـــي وبـــوم الحـــزن بروســـنا عبـــره

عـــدّوم بـــاني الهـــوى بقلوبنـــا الحـــسرة

لا تخـــاف نـــاب الـــدهر وان عـــضنا نكـــسره

مـــن شـــهد ريـــج الحلـــو كاســـات ســـطيّه

في هذا الثوب الأسود - الثوب الغالب على ثياب الشاعر الفراتي- وتلك الروح الحزينة التي تتمتع بألم الجفاء وجدنا إحساساً يغرق حباً ويطفو الأمل فيه ليرسم صورة من صور الصدق، لذلك الشاعر الذي ترنّم بكلماته المحبون وشدت بلابل الوجدان الفراتية بأنغامه الشجية والعذبة بآن واحد لتبدو كبستان تنوعت أشجاره وثماره وطابت أفياؤه ويبقى ذلك الشاعر صادقاً بكل ما عظّم من الصور لأنه يشعر ويرى ويحسّ بما لا يشعر به الآخرون.

الشكوى الوجدانية في الموليّا

إلى جانب الغضب والحزن والثورة ظهرت الشكوى كإحدى ركائز الشعر الوجداني الذي عرفه العرب والذي اشتهر به الرثاؤون في الجاهلية والعذريون وأبو فراس الحمداني والشريف الرضي وابن عباد في العصور اللاحقة.

وفي العرف يكون الطرف المتضرر هو الشاكي دوماً.وإن شاءت الظروف وانحرفت هذه القاعدة العرفية فإن العامة تقول **(ضربني وبكى وسبقني واشتكى)**.

ويلجأ إلى هذه السبيل من يمتلك القدرة على الحيلة ويجيد فنها خشية منه للعقوبة أو اللائمة، أما عن العاشقين فكل منهما يناله من الضرر ما يكفيه وكل منهما يشكو.

ومن حيث أن الشعر الفراتي يحمل بين دفتيه ملامس الشعر الوجداني فإننا نجده يفيض بالشكوى من الحبيب تارة، ومن النمام تارة أخرى، ومن العاذل على الغالب.

وقد برزت هذه الظاهرة في لون الموليّا اللون الأكثر شهرة وقد جاءت صريحة استخدم خلالها الشاعر كلمات الشكوى **(شكيت – اشكي لكم– يتشكا)**.

فنجده يشكو الهموم التي صدأ قلبه منها وقد أثقلت كاهله وأمست عيونه تذرف الدم بدلاً من الدموع.

شكيت لك ياولد تجلي صدايا وهم **وشحال عين الفراق اللي بكاها دم؟**

اشكثر شايل جفا ولوعات يابن آدم **تجبر اللي كتب باطراف طلحيّه**

ثم تمسي وتصبح الشكوى مساورة بين الشاعر وفكرة من ذلك الحبيب الذي رسا حبه بقلبه. ذلك الحب الذي يشبه بوقعه الحب العذري.

أمسيت وأصبحت أنا عقلي يتشكا لي ‏ ‏ ‏ يــامن هــواهم كمــا العــذري بــدلآلي

منـك طعـين بـرمح يــابو بـرج عــالي ‏ ‏ ‏ دخيل نجمي سقط بالله انهضوا شويه

ثم لا يلبث أن يشعر بالغربة في ذلك الوله الذي سحق قلبه كما يسحق البن، ذلك القلب الذي احتوى منازلاً للحزن واحترقت تلك المنازل فأخذ خدمها يلقون بالحطب عليها الذي تلتهمه النار فتزداد لهيباً وقد تعمدوا ذلك ليغيضوا الشاعر.

بالضيم مالي ونس تشكي لكم ولهـان ‏ ‏ ‏ دقم عظـامي بهـون الـبن غثـا ولهـان

علجن بيوت الحزن وسط القلب ولهن ‏ ‏ ‏ خـدَّام تزيـد اللهـب كلـو جكـر بيَّــه

وعندما يكون الهم ثقيلاً يفوق قدرة الشاعر على التحمل فإن شكواه تكون للخالق.

يهلن دموعي بقيت أندب على حالي ‏ ‏ ‏ سريت وأصبحت أنـا بسعون وجبـال

شــكيت أمــرٍ جــرى لمــدبر الحــال ‏ ‏ ‏ يشيب راســي على فراق الرداحيَّــه

ولا عجب إذا ما كانت شكواه كشكوى المحراث (للمشفن) ودموعه على وجنتيه تجري.

شـكيت لـك مـا شـكا الفـدان للمـشفن ‏ ‏ ‏ يدموع عيني على الوجنات مـا نـشفن

إن كاد حظك كدى يا خوي حظي فان ‏ ‏ ‏ ضـيعت ولـف الجهـل وشـعاد بيديَّــه

وهو يشكو ألم الوجد الذي انتابه منذ حداثة سنة:

شكيت لك يـا ولـد شكوى الخفا عني ‏ ‏ ‏ اموـلـع بحــبهن منــي بزغـر ســني

بـذني سمعت الخبـر ردة غلـط عنـي ‏ ‏ ‏ وتقــول لا والنبـــي مابــدل النيَّــه

كما أن شكواه كشكوى المحراث للغولي، ودموعه غزيرة تذرف على وجنتيه:

شكيت لك ما شكا الفدان للغولي يدمع عيني على الوجنات شاخولي

لا تزعلن يا لسّمر انتن ورد جوري والبيض لي شر عبن غزلان بريَّه

وبذلك تزهر المولَيّا بصدق الشكوى التي حملتها، وتقترب أكثر من قلوبنا الأقرب إلى الأسى من السعادة لتبدو ينبوعاً من الزلال وقد احتوى صدفاً استمال أنظارنا وجذب قلوبنا وشغل فكرنا وامتلك أرواحنا اللاتي أسرن يوماً ما في دوحة الشعر.

الدموع في الموليا

صراع الإنسان والقدر ركن من أركان حياتنا المعتادة، وقد كانت النفس البشرية ضحيته دائماً وأضحى الإنسان حياله مجبراً للبحث عن مخرج لتلك الآلام التي تنتابه جراء ذلك، فيهرب كل بطريقته بحثاً عن الأمان أو النسيان.

فيتجه الناسك إلى المعبد، ويتجه اللاهي إلى الملهى وهكذا، بينما لا يجد الشاعر سبيلاً إلا القصيدة ليذرف دموعه من خلالها، ويتحدث لنا عن بكائه، وهكذا كان الشاعر الفراتي في لون الموليّا، إذ نجد الدموع تنهمر حتى تجف، ليذرف الدم بدلاً منها وذلك من قسوة الحب وظلمه منذ أن كان الشاعر صبيّاً.

العين جفت دمع مذر وفها من الدم　　　كدرني جور الهوى من صباي زاد

حتسيت مر العمر جرعات دفلى وسم　　　سافن جناب الدليل واعن مساميه

ونجدها مرة أخرى ترش رشاً على الوجنتين حينما يلجأ الشاعر إلى غرفته وحيداً كالمعتكف:

دمع البيابي على الوجنات رشراشي　　　مستعكف بحجرتي نايم على فراشي

كل يوم يدزّن علينا البيض طرّاشي　　　القلب عيّا يوالف لغيرها هيّه

ثم لا تلبث أن تنسكب بغزارة كمياه الأمطار المنحدرة من أعالي الشرفات:

شكيت لك ما شكا الفدان للغولي　　　يدمع عيني على الوجنات شاخولي

لا تزعلن يا لسّمر انتن ورد جوري　　　والبيض لي شر عبن غزلان بريّه

ويبين لنا سبب انحدار تلك الدموع فيقول:

إن دموعي التي تتساقط على وجنتي، سببها ذلك الحبيب الذي تبدو وجنتاه بلون القمر اليافع، إذ طالما جلست أنا وإياه تؤنسنا رائحة البن الممزوج بالهال ونحن ننظم أبياتاً من الموليّا. ونتبادل الأحاديث الغزلية العذرية والشفافة بآن واحد.

الدال دمعي على الوجنات حدّر هل **من ابو جبين كما بدر الدجى لي هل**

يا ما قعدنا بونس بن وريحة هيل **حديثنا بالغزل أبيات موليا**

حديثنا بالغزل عذري الهوى والحب **يقولي و اقوله هلا وامية هلا ومرحب**

يا رب يا منبت طوال الشجر من حب **تجمع شملنا بعد لوعاتنا ذيه**

وليس البكاء حالة لا إرادية – ولسوء الحظ – كما يقول هو الذي يحث عينيه على ذرف الدموع لأنه يتعثر دائماً:

شكيت لك ما شكا الفدان للغولي **يدمع عيني على الوجنات شاخولي**

لا تزعلن يا لسّمر انتن ورد جوري **والبيض لي شر عبن غزلان بريَّه**

ولا يحظى بما يبحث عنه:

مقرود حظٍ تردى مثل حظي آني **أجدي ولايوم اني بالزينات حظياني**

هلّي ياعيني دمع مابين حوضين **تروي بويش الروله وسرح الزبيديه**

لكنه لا يلبث أن يفاخر بعدم تمكن حالة البكاء منه وإن كان الحبيب جميلاً وذا ضفائر مسدولة:

أبو جعود على المتنين ما هلهن **يا دموع عيني على الوجنات ما هلهن**

يا موفج الخير يا هب الريح مهلهن **بلكي بتوافيجكم تعرض لي الحموليه**

ومع أن ذرف الدموع حالة قاسية من حالات الحزن التي مرّها الشاعر الفراتي فضلاً عن أن الحزن سمة واضحة في الشعر الفراتي فلقد كانت البلسم الشافي لكثير من الأحزان فطالما نسي أحدنا همومه و لواعجه عندما سمع بيتاً من الشعر يقول فيه صاحبه أنه بكى حتى جفت عيناه من الدموع ليؤكد قول الأطباء أن الدموع تخفف الألم وتنقي الجسد من بعض السموم التي أرساها الحزن فيه.

البحث عن الكواك في الموليا

الولف – الحلو– الكواك كلماتٌ طالما استخدمها الشاعر الفراتي كرمز للحبيب، أما عن كلمة الكواك فقد أراد بها سمتي الحبيب والجميل بآنٍ واحد لكنه البعيد دائماً لأنه كثير البحث عنه، وقد ورد ذكر للكواك في مختلف ألوان الشعر الشعبي الفراتي. فنجده في العتابا:

يخبـــزِ يخبـــزو الكـــواك بيـــدو عـــسل يلـــون ثلثينـــو تـــراب

فالخبز الذي يخبزه الحبيب بيديه له طعم العسل في فم الشاعر حتى ولو كان ثلثا مكوناته من التراب.

كما نجده في لون الموليَّا اللون الأكثر شهرة في وادي الفرات، ونجد الشاعر على الغالب فاقداً للحبيب، فنلمس البحث عن الكواك يتخذ مركزاً مرموقاً من الأهمية في هذا اللون، وتعتبر الأبيات التي نظمت في ذلك من أروع ما نظم في الموليَّا، لاسيما وأن أغلب الشعراء الشعبيين تعمدوا زخرفة أشعارهم بالجناس التام، تلك الزخرفة النادرة الورود فيها.

فنجد الشاعر يقسم على أنه سيمتطي جواده ويعدو به بحثاً عن الكواك ولا يخشى شيئاً لأن الذي يبحث عن حبيبته لا يرهب الأعداء، ثم يناجيه بسؤاله أصحيحٌ أيها الحبيب بأنك تقول عني إني عدوٌ لك ؟! كيف هذا وأنا لا أقوى على فراقك ولو كان ذلك ساعةً من الزمن؟

لاركـب جـوادي ورا الكـواك عـدواني المعتنـي لـشوفهن مـا يهـاب عـدواني

مصح ياولف القلب وتقول عدواني ومصبر على فراقكم ساعة زمانيَّه

وسيمتطي جواده ويبحث عن الكواك يميناً ويساراً ذلك الحبيب الذي لم يرَ مثله بين غزلان الفرات، وغزلان دجلة، لأن الهموم التي يحملها ثقيلة وسببت له جرحاً تمكن منه، ويحتاج للعلاج قبل أن يطول به المسير فيقتله ذلك الجرح:

لاركب جوادي ورا الكواك وا دجله عالريمة الما ربت بمراد والدجله

همَّ بقلبي سطا ...... ياخوي ودوجله قبل ما يطول المسير ويمعنن بيَّه

ولن ينتظر الشمس حتى تشرق ليستمر بالبحث عن تلك الغزالة، التي أتعبت الصياد بل سيسري ولن يبرح الحبيب، وينتظره حتى يستبين الصدق منه:

لاركب جوادي ورا الكواك واسري بو عالريمة المتعبة القانوص تنحي بو

لظل برجوى الولف لمن مشط شيبو تيبين علم الصدق من ابن الحموليَّه

وسيبحث عن ذلك الحبيب مع أنه لايعرف أين هي منازله، ذلك الذي احتوت شفتاه فنجاناً من القهوة معطراً بالمسك:

لاركب جوادي ورا الكواك وادله قاصد محاري الولف الدرب ماندله

شفيت من لامها فنجال من دله امعطر بالمسك فرع الزبيدية

وسيمتطي جواده وهو مسروج ولن يهاب ظلام الليل الحالك وبرقه، وهو قويٌ لأنه يعرف ما يريد ،كما يعرف من يريد ركوب البحر، أن يرسي بسفينته قبل أن يبحر.

لاركب جوادي ورا الكواك مسروج بصلف الليالي وظلام الليل وبروج

من خاض بحر الهوى ما يقدر يفوج ألا يسَمى على شوفة مراسيّه

هذه هي أساليب البحث عن الكواك وهذه هي صورته وتلك محاسنه في عيون الشاعر الفراتي، وهذه هي لوعة وظروف حاجته إليه، والتي بدا فيهــا كل بيت من أبيات لون الموليًّا كقصيدة كاملة لتصل أحياناً لمرتبة القصة، التي تزهو بعبق الفرات وترقٌّ به، فأضحت هذه الأشعار قريبة من النفس كقــرب النبض من القلب وكقرب الروح من الجسد.

منازل الوشم في الموليّا

في الآونة الأخيرة، شغل الوشم حيّزاً كبيراً من اهتمام الباحثين فألف بعضهم كتباً في ذلك، وقدم آخرون برامجاً متلفزة عنه فوصفوا أشكاله، ودرسوا بواعث نقشه في مواضع مختلفة من الجسد البشري (كالوجه- والعنق - واليدين) فاختلفوا بذلك وتباينت آراؤهم.

قال بعضهم: كانت الفتيات يوشمن ابتغاءً لإظهار شدة البياض

وقال بعضهم الآخر: بل كان الوشم علاجاً

وقال آخرون: لجأ الناس الى الوشم كبديل للقلائد الذهبية فضلاً عمّن ربط الوشم بالسلوك الإجرامي كأولئك الذين يرسمون الأفاعي والعقارب على أيديهم.

وحين نستعرض لون الموليّا اللون البارز بين ألوان الشعر الفراتي، نجد مواطناَ عديدة للوشم فهذا الذي يشبه لون البشرة بالورق الأبيض ورسم الوشم بالكتابة الأعجمية:

يختـــال عقلـــي وأشـــوف الـــزين بالحوشـــي

أمـــــدهن بالمـــــسك بالهيـــــل مرشوشـــــي

مـــا شـــفتها يـــا ولـــد الـــصدر .... منقوشـــي

كتبـــة وزيـــر العجـــم بطـــراف طلحيّـــه

وذلك الذي يبحث بين العرب عن حبيبه الذي وشم (الهلالي) على جبينه حتى يراه

الـــشمس لـــي هرّفـــت والفـــي بـــي مـــالي

يـــاخوي ولـــف الجهـــل عـــتّم علـــى بـــالي

عينـــي تـــدور العـــرب تـــا شـــوف أبـــو هلالـــي

أبـــو جعـــود شـــقر حـــط الوجـــع بيّـــه

كما نجد من يرى وشم حبيبه كعقدي الجوهر في أعلى الصدر:

أبـو شـفاف بـدن حـسين موشـومة عجدين جوهر بزيج الثوب موشومه

ملعون ما ينومن موصوف بيه شامه حدر الجفون غرزن بورود جوريّه

أما عندما يقبل من وشم (الردعه) فان أنوار خدوده تلمع وكأنها البرق بظلام الليل:

اركـــب لجيـــة الفحـــل وشـــدادها شـــامي

امـــشي مـــع الباديـــة وســـهيل جـــدامي

لمـــن قـــالوا لـــي لفـــى مـــردوع الوشـــامي

ضـــحاح خـــدو لعـــج بـــرق الهريفيّـــه

ومع أن آثار الوشم قد تلاشت من وجوه النساء ، لكنها بقيت في ذاكرتنا كلوحة فنية جميلة ورمز من رموز الزينة لدى تلك الفتيات اللائي كن في يوم ما يتواردن الفرات ليباهي بهن النسيم وشعراء المولّيا.

ألم الحسرة في الموليّا

عندما يتيقن الإنسان أنَّ الزمن لن يرجع مرةً أخرى، وأنَّ السفينة قد غادرت الشواطئ إلى حيث اللا عودة ،فإنَّه يأسف ولا يكتفي بالأسف فلا يجدُ مناصاً إلا الحسرات، التي تضحي ملجأً له من زمنٍ يشعر بأنه قد خدعه أو غدره أو خطّأه، والحسرة مفردةٌ مألوفة في أحاديثنا، ومن حيث أنّ الشعر أحد محاورها لا سيما الشعبي منه، فقد تجلت به هذه المفردة بوضوح، ولو سلطنا الضوء على لون الموليّا اللون الأبرز فيه، لوجدنا لها مكانةً مرموقة به، حيث وردت مجازية أحياناً وعلى الغالب صريحة.

فها هو الشاعر الذي يتحسر أيام الصبا التي مرت عجلة وفاته فيها آداء الفروض حيث كانت الحسناوات فتنة له بها، كيف هذا وظنون الفطن تسبق دائماً رؤية الأغبياء:

أيــام عــصر الـصبا عجـلات فاتنـا	**غـرور راحـن لهـو وفـروض فاتنـا**
مـن يومنـا بـالهوى البيض فتنـة لنـا	**ظـن الفهـيم يغلـب شـوف الغـشوميّه**

ويذكر آخر إخفاءه للحسرة التي وضعها بقلبه العسر، ويشكو ذلك لصاحبه متمنياً لو أنّ ما جرى له لم يكن قد جرى:

أكتـب وقلبـي علـيهم كـامن الحـسرة	**عالزين مالي نجد من غير أبو نـصرة**
أخـوي يـا صــاحبي أيامنــا عــسرة	**ليت الجرى ما جرى ولا شفت انسيه**

وقد يكون سبب الحسرة طول زمن الانتظار الذي مرَّ سنيناً متتاليّة:

العين تذرف دمع من يوم فركاهم ... آني الرماني الهوى للموت ما سلاهم

سنين يا حسرتي واحنا برجواهم ... القلب عيَّ يبطل الواهس البيَّه

ثم لا يلبث أن يرى بأن العمر قد تجاوز المنتصف، ولا يجد ملفى له حيث لا قريب ولا أخت في المنازل القريبة منه:

شمس الضحى هرَّفت بعد الهنا والفي ... لا بارك الله بيومٍ فارقت ولفي

ناديث يا جاذب الحسرات وين ألفي ... لا لي قرابة ولالي بالنزل خيَّه

ويشبه حبيبته بالبرتقالة وزكاء رائحتها، ويخبرها بأنه سيترك وطنه لأجلها ويطلب إليها أن تخبره فيما إذا كانت قد تعرضت لضيم أم لا؟ ثم يطلب من عينيه أن تنثر الدموع ليتحسر على ذلك الزمن الذي غدر به:

يا بردقانه لعيف الوطن من شانك ... احكي لنا بالجرى خاف العفن ضامك

يا عين هلي دمع من بعد. خلانك ... يا حسرتي عالزمان اللي غدر بيَّه

آخر حسراته بعد أن أصبح نصيبه من الأشياء ما زاد منها، بعدما كان هو من يحدد الأنصبة والحصص للآخرين:

لاركب جوادي الضحى واروح كوّاني ... عالعارضوني بوصل البعد كوّاني

من قبل آني الكنت أجسم وكيواني ... اليوم يا حسرتي من تحت الخطيّه

ثم يظهر من يلقي باللائمة على نفسه التي يرثيها شعراً، كونه كان يظن بأن حصته ذهباً ليكتشف أنها ليست إلا سراب وطيف:

اليوم يا حسرتي أجيد نفسي حيف ... أرثي بحالي شعر للي براسو كيف

حسبت حصتي ذهب ثاريه لال وطيف ... أمسيت يا صاحبي أصفج على ديّه

ويختمها من يطلب إبلاغ سلامه لأولئك الأحبة الذين اختفوا كما يختفي الحمام في البئر العميق فلا يجد أمامه إلا الحسرات:

بلــغ ســلامي لخلــي والحــج الفــاتم ترى فراق الولـف أصعب من المـاتم

يا حسرتي عالولف مثل الحمام اللتم هفــم بيــر الظــلام حبــال ملويّــه

ولم تقف قلوب شعراء الموليّا عند الحسرة فحسب، بل إنها كانت كألوان الطبيعة تتجدد حسب الأيام وحسب الفصول فتتساقط وريقات الخريف وتنضج فواكه الشتاء وتتبرعم وريقات الربيع، وكانت فيها الحسرة ألماً يتلذذونه ويرسمونه في ريشةٍ طالما أبدعت وقدمت لنا لوحات شعرية لا زلنا نرددها ونسمعها ونصغي إليها بإجلال.

رموز السلاح في المويليا

في زمن اللا أمن تبرز الحاجة الماسة للسلاح الذي يدعونه العامة "شريك الروح"، ومن حيث أن الشعر الشعبي قد ترعرع في زمنٍ كانت بلادنا في شطرٍ منه تحت نير المستعمر، الذي شجع بدوره الفتن والغزوات الداخلية وقطع الطرق، مما اضطر الأفراد للتسلح بهدف حماية الذات والأقارب والأرزاق فضلاً عن استخدامه في الصيد حتى أصبح السلاح من أثمن مقتنيات الرجل الفراتي، لما امتلك من أهمية بالغة في حياته اليومية، حتى دخل الشعر بكل أغراضه من غزل وفخر ومدح ورثاء لكنه أخذ أبرز مكانة له في الغزل.

فها هو الشاعر وحيداً وهو يحث مهره على الركض حتى يتمكن من رؤية الحبيب ولا يؤنسه في تلك الرحلة إلا سيفه وبندقيته:

حثيت مهري سرى الناس عاذوني ... منواي شوف النجود التوارد السعونِ

رقيت حزمٍ وبان الضو .. بعيوني ... مالي ونس غير سيفي والمكنزيّه

ثم يهم للبحث في البيداء عن أحبته، وهو بكامل سلاحه، ولا سيما تلك الذي تشبه خدوده ثمرة التفاح قبل نضجه سيفعل ذلك وهو يعلم أنَّ المحبين لهم ثأرٌ على النساء فهن قاتلات عامر والوشاحي ورميم الذي انتظرهن على مورد الماء عاماً كاملاً:

لضرب البيدا عليهم بكمال السلاح ... لابو خدودٍ كما التفاح لولاح

إلنا عليهن تبل عامر والوشاحي ... ورميم ظل بوعدهن للحول عالميّه

ونجده في جانبٍ آخر وقد وجد الحبيب في منطقة سحل الخشب وقال له:

مساء الخير بينما كان نطاق الطلقات يلامس أحشاءه ولم يضره، عندها عضَّ كفه ندماً وأسفاً على ذلك الحبيب الذي قتله حباً:

بـــسحل الخـــشب لاح لـــي الكـــواك ماســـاني

صــف الفــشك جــس خمــص حــشاي ماســاني

أعــض كـــف النـــدم نوبـــه اقطعـــوا بـــسني

وأجـــذب وســـايف علـــى الجـــانم ســـبب ليّـــه

ولم تكن عينا الحبيب جميلة فحسب بل كانت ترمي طلقات قاتلة أيضاً:

عيونـــه فـــشك مـــا طلـــي مـــوزر ومـــدبها

عيـونِ مـــا تـــشوف الولـــف عـــود الرمـــد بهـــا

لـــضرب فجـــوج الفـــلا بالليـــل والوبهـــا

مثـــل مغلـــوث انتـــزع شـــوفه عـــن الميّـــه

ويكرر آخر ذلك ليؤكد أن عيون الحبيبة قاتلة كالرصاص:

أبـــو جعـــودٍ علـــى المتنـــين ســـلمانِ

واللـــي احتـــضى بحـــبهن مـــا قـــام ســـلمان

علـــواه يـــا أبـــو الزلـــف وتقـــول ســـلمان

وتطلـــج علينـــا رصـــاص وفـــشك ردنيَّـــه

كما أُستخدم السلاح في الإيحاء والتوريه:

اســـمك مـــن اســـم الـــسلاح المرنّـــا وراح

شـــالت شـــيوخ العـــرب طـــوال الرمـــاح

شـــــبهك غــــزالٍ شــــرد وارد عــــالمواح

قبـــل مــــا يغيـــب القمـــر قاصـــد مفاليّـــه

ويقتصر الوصف أحياناً على السيف الذي يرافق الشاعر دون مقارنة مع الحبيب:

ســريت مــن المــستجد يــوم الــبطن عــاكر

ملتحـــف ســـيفي بيمينـــي أبلـــج وضـــامُر

لازم علـــى وصـــولهن مـــا زال الوكـــت فـــاجر

قبـــل مـــا يلـــيح المـــشيب ويطعـــنن بيَّـــه

وقد تخشى الفتاة التي ترد الماء رصاص الصياد فتعرفه بنفسها تلك الفتاة التي بدا سواد عينيها كالحبر الأسود على القرطاس الأبيض:

دفــق الحبــر مــن علــى القرطــاس عــين لهــا

تــــشبه جــــواز بحمـــادة رمـــيم عينولهـــا

حـــط الهتيمـــي علـــى الميـــراد عانـــه لهـــا

قالـــت لاتـــاهم حبيبـــي ربـــاة شـــرجيَّه

ولم يكن السلاح مغنمةً وإنما كان مغرمة تدفع ثمنها الأرواح البشرية التي جلبت على الجنوح إلى السلم والتسامح، ما لم يكن ذلك بهدف رد اعتداءات الآخرين، وإنما الغنيمة في الأمن والأمان ولنا الفخر أن نعيش في بلد هو الأكثر أمناً في العالم تنبذ فيه مظاهر التسلح الشخصي لتسمو بذلك النفس البشرية وتعتز بحضارتها.

ولم يكن هدفنا مما أوردناه تمجيد السلاح لذاته، أو للفترة التي ظهر بها وإنما يقتصر اهتمامنا على تلك الكلمة وهذه الصورة الجميلة التي شاركت الشاعر الفراتي شعوره فجذبنا إليها بعفوية وتحبب.

العتابا

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

العتابا مابين الدوبيت والأبوذيه

ما بين الكلاسيكية والحداثة والفلكلور[١] صراع دفين، يظهر أحياناً في حواريات أدبية تجري بين المتخصصين في الأدب وهواته، وعامة الناس، والكلمة البليغة ذات الصورة الجميلة، هي التي تثبت ذاتها دون النظر إلى نسبها، فحفظ الناس للقصيدة وبيت الشعر هو مقياس الروعة لهما.

والشعر الفلكلوري كصرح من هذه الصروح الثلاثة، حاز في الآونة الأخيرة على اهتمام الباحثين ودرسة الأدب، بعد أن تبين لهم مضاهاته لصنوف الشعر الأخرى القديم والحديث والمترجم، وإذا ما بادرنا إلى دراسة هذا الشعر في مدنية الرقة نجد العتابا في صدر صرحه.

والعتابا ضرب من ضروب الشعر الشعبي لا في الرقة فحسب أو وادي الفرات، بل في بلاد الشام بأسرها والعراق ومصر، ففي بلاد الشام تحمل الاسم ذاته، وقد اختلف الباحثون حول أصل التسمية لكن الواضح لنا من التسمية أنها مأخوذة من العتاب وليس عتبات البيوت، ويؤكد ذلك أن أغلب أغراضها عتاب بينما تسمى (الدوبيت) وهي كلمة فارسية معناها بيتان في العراق وفي شطر منها الأبوذية.

وهي بيت واحد تتكثف فيه المعاني، ليصل لمرتبة القصيدة، لما تحمله من بلاغة في التعبير ودقة في التصوير، مكون من أربعة أشطر على شكل

---

(١) مصطلح أجنبي صاغه عام ١٨٤٦/ عالم الآثار (وليم جون تومز) وتعني الشعب و(FOLK) الشعب و(LORE) التراث.

بيتي الشعر العمودي وزنه العروضي على البحر الوافر، الكلمة الأخيرة من كل شطر من الأشطر الثلاثة الأولى متطابقة باللفظ مختلفة بالمعنى (جناس) أما الشطر الرابع فيما نسميه العتابا فيأتي ألف وباء أو ألف مقصورة:

**طوال جعود حبي من عتيدي		أريد املك زياجو منعت ايدي**

**رقيب اكتب أمهل يا عتيدي		تريد أبل شوفي من الحباب**

وفي الأبوذية: ياء مشددة وهاء متروكة:

**علامك تحمس بروحي علي مر		أهيم وصار مشروبي علي مر**

**أنا يوم سار مضعونك علي مر		غدت شمس الضحى ظلمه عليه**

كما اختلف الباحثون حول تاريخ العتابا وأصلها شبه المجهول، فمنهم من اعتبرها أما للأبوذية، ومنهم من اعتبرها وليدة لها، ومنهم من نفى الصلة بينهما.

يقول انستانس ماري "**إن كلمة الأبوذية جاءت من معنى الأذية وأن أول من نظمها شعر بأذية أصابته فجاءت عفواً بما يشعر به وهو بالأصل من نظم أهل البادية**[1]".

ويرجع فاروق العمر الأبوذية إلى أصول يونانية.

"**إن الأبوذية من الفنون الغنائية اليونانية .. خصوصاً أن هذا النمط من الشعر موجود في اليونان باسم "EPCDHIA**[2]" .

ومن الباحثين من أسماها بالحسجة ومنهم من نسبها إلى الفارسية "دو بيت" وآخرين قالوا عنها (عبودية) نسبة للشاعر حسين العبودي الذي يقال "إنه صادف إمرأة تنعي عزيزاً لها، فتأثر بها وراح ينظم بطريقة عفوية، فكانت العبودية المشتقة من اسمه".

---

(١) ثامر عبد الحسن العامري (المغنون الريفيون وأطوار الأبوذية العراقية).

(٢) المرجع السابق.

والشيء الملاحظ مابين العتابا والأبوذية هو التجانس (الجناس) والوزن العروضي، أما خلافهما فهو قافية الشطر الرابع مما يؤكد أصلهما المشترك.

ومهما كانت العتابا ومهما كان أصلها وتسميتها، تبقى عذبة كالفرات، وجميلة كطبيعتها، تغسل المهج الملوعة، وتتدفق من القلوب الصادقة، كتدفق ماء الزلال من بين أفئدة الأرض.

غناء العتابا

للعتابا أطوار موسيقية متعددة وتغنى العتابا من جميع المغنين لكنها تحتل مقدمة الأغاني فقط ويعتبرها أهل الرقة قادمة من بيئات أخرى وهي أقل من الموليا عدداً. التي يعتبرونها شعر مدينة الرقة.

نماذج من العتابا الرقية

حبيبـــي كـــل تحـــالي الـــورد بيـــك ربيـــع مـــدرج الهـــازل ورد بيـــك[1]
أنـــي كـــل ماطـــاح مـــدلاكم ورد بيـــك أعـوي واجـور مـن حـر الـصواب[2]

*　　　*　　　*

حبيبـي ريـم لـو مبـسم ونـس نـس نحرني يلاعب جعود و ونس نـاس[3]
رمـاني حـراب مـسمومة وانـس نـس الفحـــم ومنـــاحرو ذاري الهـــوى[4]

*　　　*　　　*

ســحابٍ فــات فــوق جبــال ورعــاد زلازل بــي ظهيــر حــشاي ورعــاد
هذي الدنيا ينـاهي مـا حزنـت ورعـاد الــزرع جنــات بفيــا فــي ... الغــلا

*　　　*　　　*

اش على بالك ياها لتقول لي بلاهم تقـول احكـام مـن خـافج بـلا هـم
ســكن حزنـــي بـــدلالي بـــلا وهـــم صـــليل النـــاب مـــن ســـمو ارتـــوى

*　　　*　　　*

اش ثقل حمل الليـالي بغيـر نـدماي غثيـــث البـــال يكلمنـــي ونـــدماي
أنـــا همـــي وحـــسراتي .... ونـــدماي علـــى عمـــر تخطـــاه .... الـــشباب

*　　　*　　　*

---

(١) تحالي: أوصاف بيك. بك مدرج: يعيد الصحة الجيدة ورد بيك: مرَّ بك.

(٢) مدلاكم: نكر اسمك الصواب: كلمة: تستخدم لمعانيٍ عدة منها (الكسر + الجرح +المصيبة)

(٣) جعوده : ضفائره ونس ناس :نسيم

(٤) ونس نس: أحترق كما يحترق الفحم عند مرور الريح به.

تلـوى يــا كبيــر حــشــاي بالهــام　　　عليهم جـر جرتنـي الـروح بالهـام
أشوف النـاس تلعب وراني بالهـام　　　التقنطــر فـــوق دلالـــي وغفـــا

*　*　*

صـباح الخيـر يـا مـدلل والمـساك　　　منــك صـــاح دلالـــي والمـــساك
هــدوى بليــــل متعنـي والمـساك　　　علــى خــدك حــدر ريـش الهــداب

*　*　*

هنـــا ياراكـــب الحـــرة علـــيهم　　　ريــض خــذ مــن قلبــي علــيهم
آنـــي ملكـــوم بالغربـــة علـــيهم　　　علـــيَّ مـــا يـــردون .. الجـــواب

*　*　*

ياحـايف هـالعرب صـدق منـا مـو　　　لاتــوهم بالــشبه صــدق منــامو
طريــد الزغــار كــل عمــر منــامو　　　شـقي ماشــاف مــن عمــرو هنــا

*　*　*

يتـــاهم دحـــج لحـــالي شـــواهن　　　هــواكم شــطر كبــودي وشــواهن
يطيــر الحــر مــا يطــرد شــواهن　　　يــصيد ريـــام ماتهـــاب العـــدا

*　*　*

مناجيــد بهـــواكم كـــاد بحنـــا　　　وغـدا حـالي ضـريب الـصل بحنـا
نمــت ليلــك ياخــال البــال وحنــا　　　يبيـــــن شـفاقنا نحـسبو مـسا

*　*　*

زمـــاني مـــاظلم غيـــري ولايـــوم　　　جلـــب لـــي همـــوم دلالـــي ولايـــم
أبـات الليـل كالـشاكي بليـــا أم　　　كــصيم وطـــال جرحـــو بالـــشفا

*　*　*

النايل

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

النايل

أ - أصل التسمية:

النايل: كلمة وقف أمامها الباحثون بحيرة

قال اللغويون: النائل: كثير العطاء – نيّال نيلاً ونائلاً – صار نالاً أي جواداً، وقالوا أيضا: النائل الذي يهتز بمشيه، وينهض برأسه يحركه، إلى فوق، كمن يعدو وعليه حملٌ ينهض به.

وقال القصاصون: (نايل) اسم لرجل قيل بمدحه أول بيت نظم من هذا اللون، وقد ورد ذكر لهذا الاسم فيه كقول الشاعر:

نايل يريد يعبر .. نايل يريد يموت   عجزت حكومة حلب دزّم على بيروت

وقيل أيضا النايل: الأسود وهو لون الحزن ومن ذلك تقول الشاعرة:

من لون السويحلي:

يا ثوب حزني أجرد وأزيدك نيل   أخوي وابني مهم بغلاة الزين

إلاّ أن الآراء متباينة ومتشتتة، كما هو واضح، لكن المعروف لدينا:

إن النايل: أحد أبرز ألوان الشعر الشعبي المغنى في وادي الفرات عموماً وفي مدنية الرقة بشكل خاص.

ب- شكله:

النايل: بيتٌ منفردٌ من شطرين موحدي القافية. يمتاز بالرقة والسلاسة، والكلمة البسيطة، السهلة اللفظ المتداولة المعنى بين العامة وتحمل أغلب أبياته جملاً خبرية تميل كثيراً إلى السرد القصصي:

مــا تنفــع اللايمــة وصــفق باليــدين   حزين طول العمر عـالترقبوه عينـي

يكتب النايل دائماً كما أسلفت بيتاً منفرداً تتكثف فيه المعاني التي تنقل الفكرة المطروحة كاملةَ لكنّ ثوب الحزن الذي يرتديه يضفي عليه مسحة مأساوية تشير إلى المعاناة التي تسكن قلب الشاعر الذي قاله:

"قـولم لولـف القلـب العلـو لا يـشباه   البـوم عـاف الحـزن لقلوبنـا خـلاّه"

ج- وزنه العروضي:

يكتب النايل على البحر البسيط، ووزنه ذات وزن الموليا لأنه كشطري بيت الموليا الأولين.

ء – غناء النايل:

يغني النايل بطرق عدة تتشابه وتختلف وهي:

١ – نايل الورّادات ٢– نايل الديرة ٣– نايل الزمارة ٤– نايل "أبو كذالي" ومن أشهر المغنين الذين أجادوا غناءه "**حسين الحسن، إبراهيم الأخرس، خليل الهباش، حسان الأحمد العقلة، موسى العبد العزيز**"

هـ - الألم والمعاناة في النايل الرقي:

من أبرز الشعراء في تجسيد هذا الجانب الشاعر موسى الحمد بمسحته الحزينة، وألمه الدائم ودمعته المنحدرة، وقلبه المحترق يقول من ذلك:

أشحذ سلامك بعيني شحاذة يتيم الأم   مجروح رأس القلب والجرح ما يلتم

وقوله أيضاً:

بعد ماراح العمر ظل الهوى بـالجوف   وقلبي مليله بجمر ما بين آخ وأوف

ولم تغب هذه الظاهرة في شعر محمود الذخيرة، الذي ازدهر النايل بين يديه في مدينة الرقة مع أنه يمتلك شفافية شعرية مميزة و يحتوي شعره على الكلمة العذبة.

يا ريح امشي بهوادة خد الزين لاتدميه   خايف عليه يتبثر جرح القلب يحييه

ويقول أيضاً:

عرسك مبارك حبيبي لوّك طرفت   منهو اليسلي القلب من بعدكم يا زين

وتبدو معالم هذه الظاهرة في نايل زيد الهويدي الذي يحمل بين حناياه سمو نفس وجرس موسيقى حصين.

حبيبي إش هالجبار تبيع المحبة   من أجل عينك يا غالي عفنا الأهل

ولم تزد هذه الميزة النايل إلا عذوبة، وروعة ونكهة، تنقل نفحة البيئة وجغرافية الطبيعة، وربما قساوة الحياة في جانب منها تنمّ عن حس شاعري يُنقل على شفاه المغنين بكل إحساس وشاعرية، وتظهر مع كل حرف يتلفظون به، وهذا ما لمسناه في كل ما سمعناه من النايل سواء على ألسنة الشعراء أو على شفاه المغنين.

الليل والاغتراب في النايل:

الليل كلمة طالما اقترنت بالهدوء والسكينة، وبالخوف والألفة حيث حملت المتوافقات والمتناقضات بآن واحد، كما احتوت السمر والاغتراب للشاعر الفراتي بذات الوقت، ولم يكن نصيباً له فحسب من بين أقرانه بل إنه كان لأسلافه أيضاً. يقول "امرؤ القيس":

وليل كموج البحر أرخى سدوله   عليّ بأنواع الهموم ليبتلي[(١)]

وقد شغل حيزاً كبيراً من الشعر الشعبي العربي عموماً و الفراتي بشكل خاص بألوانه المختلفة، بيد أنه بدا أكثر ظهوراً في لون النايل، ذلك اللون الذي يتراءى وكأنه مزيج من الشباب والحب والنسيم والشعر والجمال.

---

(١) طبقات فحول الشعراء/ج١/ ص١٢/.

حيث شكا فيه الشاعر الفراتي فيه من عنين القلب، ذلك العنين الذي كان الحبيب سبباً له، وسلامه الذي ألقى به من رؤوس أهدابه.

القلب عن وحدو توالي الليل منشانك   تسلم بطرف الهدب يا زغر وجدانك

كما كان سبيلاً لرحيل النوم، حيث عشقت الجفون السهر لأجله، وإنه لمجنون من لامه جراءَ ذلك.

عزيـز قلبـي عليـك الليـل مـا نـاموه   الجفـن هـاوي الـسهر مجنـون لوامـه

وهو يخشى ظهور الشفق، خشية منه أن يقف حائلاً بينه وبين رؤية الحبيب.

جاعد واتـاني طويـل البـال مـا جـاني   خايف يبين الشفق مـا اشوف خلاّنـي

وهو يعجب من الحبيب الذي يسأل عن سبب قدومه وهو الذي قصده بذلك الليل الحالك، وقد انتظره حتى أوشك القمر أن يضحي.

جيتـك بظلمـا تقـول لـي شـغناك؟   ضحضح عليّ القمر واني برجواك

ويشعر بالغبطة حينما يذكر جلوسه والأحبة وبيت الشعر يحيط به، رواقان (إشارة لبداية البرد) والقمر بأواخر أوانه، ومنتصف الخريف.

ياما قعدنا سوى والبيـت بـرواقين   والقمـر تـالي شـهر مـابين تـشرينين

وقد فضل السهر مع الأحبة على لذيذ النوم، سيما إنه يطلب منه ذلك ويكرر طلبه كلما همّ بالوقوف.

ياما قعدنا سوى وعفنـا لذيـذ النـوم   يزعل علينـا الولـف كلمـا نريـد نقـوم

وإن كان الحبيب بمنازل بعيدة عنه فإنه سيطأ الليل ويأتيه حيث كان.

من قفا الكـارة لـدوس الليـل واجيكم   تطـرّفم بـالعرب بلكـي نلاقـيكم

ولقد غاب القمر وجاءهم يبتغي الشفاء، فلقد أعجز الطبيب علاج من طعنوه بالهوى:

غاب القمر غاب تراني جيتكم يا حباب طعينكم بالهوى محد لقى له طباب

ثم لا يلبث أن يرحب بالقمر بعد مجيئه، لأنه يحمل له أخبار الحبيب فلقد رآه وقد هلّ فوق دياره.

يا مرحبا بالقمر طارش حبيبي وجيت عيني عليك المسا من فوقهم هليت

ويشكو لليل من غشاوة الحزن التي كللت قلبه فهام، ويسأله إن لم يكن مصدقاً فليسأل النجوم عنه.

قلبي غشاه الحزن هيمتني يا ليل اسأل بنات النعش والفرقدا وسهيل

ولقد أشرف الليل على الرحيل لكنّ نفسه لم ترتوِ من رؤية الحبيب وتبادل الحديث معه.

الليل طرّف أشوف النجوم ما غابت ومن عشرتك يا حلو النفس ما طابت

ثم يسأل الليل بعد رحيله هلاّ أغمض جفنيه، كيف ذلك وقد حرم من رؤية الحبيب.

مصّح يا ليلِ مضى، عيني خذاها النوم؟

وشنهوا اليصبر القلب المن شوفتك محروم؟

هذا هو الليل كما رآه الشاعر الفراتي وهذه صورة من صور عدة تحدث في بعضها عن النجوم والنسيم والذئب والبوم كأشياء ذكرت معه وشاركت الشاعر اغترابه، وألبسها حباً عفيفاً صادقاً دغدغ الوجدان، ورحل بنا إلى ليلٍ تسمع فيه أصوات طالما افتقدناها وأحببنا أن نستبدلها بذلك الصخب الذي ملأ نفوسنا حتى في أوقات الهدوء والسكينة التي خصنا بها الخالق سبحانه وتعالى.

مناجاة الذئب في النايل

مما لاشك فيه أن علاقة الإنسان بالذئب هي علاقة عدائية منذ الأزل، حيث يروى أن إخوة يوسف عليه السلام، عندما ألقوه بالبئر وجاؤوا إلى والدهم فسألهم عنه قالوا له: لقد أكله الذئب فقال لهم أن يأتوا به، فعمدوا إلى عصيهم وحبالهم وجاؤوا إلى ذئب وأخذوه إلى أبيهم "فقال له" يعقوب عليه السلام: "أيها الذئب هل أكلت ولدي وقرة عيني وحبيب قلبي وثمرة فؤادي يوسف؟ فتكلم الذئب وقال: لا وحق شيبتك يا نبي الله، ما أكلت لك ولداً وأن لحومكم ودماءكم معشر الأنبياء، لمحرمة علينا، وإني لمظلوم مكذوب عليّ وإني لذئب غريب من بلاد مصر[1]" جئت لزيارة قريب لي من الذئاب.

لكن هذه العلاقة العدائية لم تمنع الشعراء من الحديث إلى الذئب تارة ومقاسمته الزاد تارة أخرى يقول "الفرزدق" مخاطباً الذئب:

فبتّ أقدّ الزاد بيني... وبينه   على ضوءِ نارٍ مرةً ودخانِ

تعشّ فإن عاهدتني لا تخونني   نكن مثل من يا ذئب يصطحبان[2]

أما عن الشاعر العربي فإنه عمد إلى مناجاة الذئب وأروع الأشعار في هذه المناجاة ظهرت في لون النايل ذلك اللون البارز بين ألوان الشعر الفراتي فنجده يتساءل عن سبب عواء الذئب، مع أن كبده سليمة وكبد الشاعر كأنها الجلد المصبوغ بالدباغ:

---

(١) حياة وأخلاق الأنبياء – أحمد الصباحي–

(٢) الكامل في اللغة ولأدب/ ج١/ ص٢٨/.

يا ذيب ليش تعوي كبودك بعدهن صاغ وانـي كبـودي غدن جلد وعليـه دبـاغ

ثم يشكو إلى الذئب عدوى العواء التي أصابته:

جضّن ضلوعي سوى أعديتني يا ذيب يحـرم علينـا الغـوى مـازالهم تغريـب

فما يلبث أن يتألم لسحال الذئب فيطلب إليه الكف عن العواء، فلماذا العواء ومصيبتي أكبر من مصيبتك؟!

يا ذيب حاجة تعوي حالك مهو لحالي قلبـك سـليم الغثـا مـا فارقـت غـالي

وعندما يشتد ألم الشاعر يتهم الذئب بخرمشة قلبه.

ذيب خمش ضامري صاطي على كبودي كلمـا انفـوه بزعل مـال العـوا يـزودي

والجروح التي خلفها الذئب عميقة مما جعله يطلب إلى الآخرين الابتعاد عنه لأن قربهم من القلب يؤذيه:

ذيب خمشني وسطا مجروح من نـابو لا تلجمـون القلـب مكوّى علـى حبابـه

ثم تنتقل تلك المناجاة لتصل إلى المرتبة التي يشعر بها الشاعر بالأسى لتلك الذئبة العمياء وأبنائها الجياع.

الذيبة الـ بالكهف عميا وضناها مجيع ينهونـا عن الولـف عيّ الـدليل يطيـع

وهو يرى أن هناك فرقاً كبيراً بين دواعي عواء الذئب وأنين المحب.

الـذيب لمـن عـوى فاقـد مفـاليهن وعنين راعي الهوى يذكر معانيهن

فالأول يبحث عن ذئاب أخرى والثاني يئنّ عندما يذكر معاني كلمات حبيبه الرائعة. من ذلك الخلاف الأزلي وذلك الوئام الغريب في المناجاة بين الذئب والشاعر، وردتنا هذه الهواجس الشفافة التي تنقلنا إلى تلك الفلاة التي يشقق أفقها الصدى ليسلو بها العاشق ويتمتع بها المفارق فجاءت بذلك لوحة فنية جميلة مرسومة بكل عناية وإلهام.

اللكاحي

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

اللكاحي

يعتبر "اللكاحي" من أبرز ألوان الشعر الشعبي الرقي، وتميل النسوة إلى نظمه أكثر من غيره من الألوان الأخرى، فهو شعر نسوي إلى حدٍّ ما لسببين أساسين:

الأول: رقة مواضيعه وعاطفته العابرة والخاطفة.

الثاني: سهولة نظمه إذا ما قورنت بالألوان الأخرى

أ- اللكاحي: شكله:

هو بيت منفرد بشطرين موحدي القافية، ولا ينظم على وزن أي بحرٍ من بحور "الفراهيدي" ، وإنما يقاس وزنه غنائيّاً فقط، ومن نماذجه:

شوقي يا نجمٍ ساري حدّر على مغيبو ابن العرب شندلني يا ريتني نصيبو

ب- اللكاحي: مواضيعه:

ينظم "اللكاحي" بمدينة "الرقة" بكثافة، لذلك تتكثف معانيه، ففيه وصفُ للزي الرقي حيث "الزبون" و"الهباري":

يا بو زبين لب الجوخ يا بو هباري عراقي

الحكم عايد لايدك دخيل بَيض وراقي

وفيه وصف العفة، فهي كالناقة بعفتها، ولا تقبل بأيٍّ من الناس زوجاً لها إلا حبيبها الذي أخلصت لحبه:

بكرة عفا ما شالت والناس لجت بيها ما هي خيالة عفنين تتنى وعد راعيها

ولعفتها اشتعلت نيران قلبه حباً، ولا تطفئ أمطار شهر نيسان نيران هذا الحب:

بكرة عفا ما شالت ألا الندى بذراها نيران قلبي وجت نيسان ما طفاها

وفيها الشكوى، فلقد أومت لحادي الضعن كي يتمهل، لأن قلبها أمسى بلون الحجر المحروق بالنار، والذي كرر حرقه بسبب فراقهم:

أوميت لك برداني رد الضعن يا حادي أسود عليهم قلبي مثل لون الهوادي

ولقد شعر بأن الحب يؤلم، كما تؤلم لسعة "العقرب"، حيث يصل ألمه للعظام، فيطلب ممن يحيطون به، أن يأتوه بشيء من ريق الحبيب، علّه يستطيع النوم:

آنـــي لـــدغتني العقـــرب ســـمها ســـطا لعظـــامي

هـــاتم ريجـــو بالقطنـــة بلجـــي اغفـــى وانـــامي

ولقد رحلوا وقلبه بهواهم، لكنه لا يستطيع الوصول إليهم:

حجـــل الرجـــل مدقوقـــة طبـــت شـــرايع طـــاوي

والرجـــل مـــا تـــصلهم والقلـــب الاكـــشر هـــاوي

ولتأمل "الفرات" نصيب منه أيضاً:

لا قعـــد علـــى شـــط مـــراد واتعجـــب بالجـــاري

خـــدٌ علـــى محبـــوبي أنعـــم مـــن الهبـــاري

وكذلك للسّفان:

ســـفان ديـــر المـــردي لايـــا ولـــد يـــا ديـــري

ربيـــــتهم شـــــلايل صـــــارم وليـــــف لغيـــــري

كذلك لعود "البردي" الذي يشبه بطوله قامة الحبيب:

شــوقي يــاعود البــردي ومــن الهــوى مــسدوحي

هــاتم مــن ريجــو الغــالي بلجــي تــرد الروحــي

ولسور "الرقة" كان منه نصيب، وذلك الذي تحيط به الصبايا اللائي يشبهن الغزلان:

فزيت من منـامي حسيت ذابل ريجي   ريام الرقة يتخطت عند السور العتيجي

كما ورد ذكر الأديب الدكتور "عبد السلام العجيلي" فيه.

فهي تستنجد فيه، وهي تسمع صوت أداة سحن الهيل تدق في أحد مواقع الرقة والتي تعود لأهل حبيبها الذي لم يوافقوا على زواجها منه:

غربي طاحونة عياش دق النجر بالليل   وآني دخيل الدكتور عبد السلام عجيلي

ولايسعنا هنا إلا أن نقول، أننا لا نستطيع الحديث عن مواضيع "اللكاحي" كاملة ً لأنها كثيرة ومتنوعة وشيقة أيضاً وما أوردناه كان على سبيل الذكر لا الحصر.

ج: " اللكاحي": أصل التسمية:

يكاد أن يتفق الباحثون على أن أصل تسمية "اللكاحي": تعود لصوت الدف الذي يرافق هذا اللون أثناء أدائه من قبل المغنين، حيث تشبه موسيقاه أصوات وإيقاعات حوافر الخيل وهي مسرعه راكضة، وتلقي بأرجلها أمامها أي أن هذه التسمية لحنية.

و للكاحي مسميات أخرى كالـــ "الساجوري" و"اليايوم".

و"الساجوري": أحد أسماء "اللكاحي"، وينسب إلى "نهر الساجور" وهو نهر صغير قرب الرقة.

أما "اليايوم"، فهي تسمية لحنية أيضاً وتعني يا أماه، وسمي بهذا الاسم لكثرة تكرار كلمة "يايوم" مع الغناء ممزوجة بصوت الربابة.

من خطمتك نادولي ما خلوني تاشوفك علام حالك رديان والزعل ساطي لجوفك

د - " اللكاحي": غناؤه:

يغنى هذا اللون من أغلب أهل "الرقة"، ومن مختلف الأعمار، وعلى مقامات عديدة، وذلك لمرونة لحنه، وسهولة معانيه، ولكثرة ما نظم منه، ويميل الشباب إلى الألحان السريعة، كـــ "اللكاحي" و"الساجوري" بينما يميل كبار السن إلى الألحان الهادئة والبطيئة ومنها "اليايوم"

هذا هو "اللكاحي" شكلاً سهل النظم، وموضوعاً حمل ألوان الخدود وقامات الصبايا الممشوقة، والزبون والهباري، ولحناً طالما أطربنا ونقلنا من الشكوى إلى الأمل فحياةً أحببناها، ذكرى، وحاضر ومستقبل.

السويحلي

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

السويحلي

السويحلي: أحد أشهر الألوان الشعرية الغنائية لون واسع الانتشار في وادي الفرات كله، وهو ليس لوناً رقياً فأهل الرقة ينظمونه بقلة، إلا أنه يغنى بكثرة فهو سهل اللحن ولين الأداء.

أصل تسميته: يرجعه الباحثون إلى (جر السفن) أو (سحلها) ويذكر أن أهل الفرات كانوا يغنونه أثناء سحب السفن من الضفة المقابلة والتي تحمل الركاب أحياناً والمؤونة أحياناً أخرى قبل أن توصل الضفتان بالجسور الحديثة ومن ذلك يقال سويحلي أي: (غناء سحل السفن)، ويسمى في العراق النايل المقلوب، وهو ذاته الدارامي شعراً ولكن بتبديل مواقع الكلمات في بيت الشعر ذاته ويقول آخرون أن تسميته لحنية، شكله بيت بشطرين والأصح أن يقسم إلى أربعة أشطر، الشطر الأول مع الثالث موحدا القافية، بينما الثاني والرابع لا يشترط أن يكونا موحدي القافية.

أشـــــــبيك تـــــــــــــدوي   يـــــــابوم تـــــــــالي الليــــــــل(١)

مـــــــا راح لـــــــك شـــــــــي   ولامـــــــس دليلــــــــك ضـــــــيم(٢)

إلا إن بعض الشعراء يوحدون القافيتين الثانية والرابعة:

---

(١) اشبيك: مابك.

(٢) ماراح لك شي: لم تفقد شيئاً، دليلك: قلبك.

لا شـــــــــري ولا بيـــــــــع　　　　ومـــــــــرافج التجـــــــــار[١]

صـــــــــدور المـــــــــرابيع　　　　بـــــــيض الحبـــــارى الزغـــــار[٢]

يعتبر السويحلي من أعذب الأشعار الشعبية نظماً ولحناً وغناءً، وأرقها شاعرية حيث ينساب من حناجر المغنين كما ينساب ماء الفرات بين أحجار المرمر، وهو أقرب إلى النفس المعذبة والحزينة التي يحرقها الحب كما تحرق النار الشمع، ومن أشهر المغنين الذين أجادوا غناءه (محمود شحاذة- محمد الحسن- إبراهيم الأخرس).

أما مواضيعه فهي مزيج من الحزن والفرح بآن واحد، وتارة أخرى وصف للحبيب، ويختلف أحياناً موضوع الشطر الأول عن الثاني إلا أن الحزن يبقى ظاهراً فيه كظهوره في جميع الأشعار الرقية.

شـــــــلونك بهـــــــا لعيـــــــد　　　　يــــــــاجرح دلالـــــــــي[٣]

أحبـــــــابي المباعيـــــــد　　　　عـــــنّم علينـــــا اليـــــوم[٤]

ومن الجدير بالذكر أن أبيات السويحلي إذا ما أردنا تعدادها فلا تزيد عن ثلاثين بيتاً رقياً وقد ظهر لنا ذلك من خلال دراسة أجريناها لمدة عشر سنوات، وأكثر شاعر نظم من هذا اللون نظم سبعة أبيات، ثلاثة منها مشهورة، وأربعة مغمورة، وهذا يؤكد صحة رواية بعض المعمرين، الذين يقولون أن هذا اللون قدم إلى الرقة من الشرق /شرق الفرات/ ومن نماذج الشعر السويحلي الرقي:

---

(١) لا شري: لا أشتري، مرافج: أرافق.

(٢) الزغار: الصغيرة.

(٣) بهالعيد: في هذا العيد.

(٤) عنم: ذكرتهم.

مـــــــن العلـــــــــو لاح يامرحبـــا بهـــا لـــــزول[١]
قلبـــــي مــــع الـــــراح وظـــل القفـــص هينـــا[٢]

* * *

يـــا ابـــو جـــوابي لا أســـايلك يـــابير[٣]
شـــــالم أحبـــــابي مـــدري ضـــعنهم ويـــن[٤]

* * *

مثـــــل المغربـــــي لا دوج بالعربـــــان
بلجـــــي يـــــاربي تجمـــع شـــملنا اثنـــين

* * *

ماســـــــــولفولك عقبـــك رحـــت للمـــوت
مـــــن شـــفت زولـــك راح المـــــرض وبريـــت

يغنى السويحلي على مقامات عديدة ويجد فيه الموسيقيون راحة في اللحن لسهولة وزنه الشعري وينسبه أهل الرقة للأداة الموسيقية التي ترافقه عند الأداء فيقال (سويحلي ربابه ،سويحلي زمارة و سويحلي منفرد)

هذا هو السويحلي بصداه المترامي في آذان العشاق والذي أحبه المغنون كما أحبه البسطاء من الناس لما يمتلكه من مزيج لحني وشعري وصورة جميلة وقف أمامها الشعراء بإجلال.

---

(١) لاح: ظهر وبان بالهزول: بهذا الزوال.

(٢) القفص: القفص الصدري هينة: هنا.

(٣) جوابي: جمع مفرد جابيه وهو إناء كبير يوضع قرب البئر لتشرب منه الماشية.

(٤) شالم: حملوا أمتعتهم ورحلوا مدري ضعنهم وين: لا أدري أين ستتجه ضعونهم.

القصيد

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

القصيد

وهو شعر خاص بالبدو الرحل، يكتب على الشكل التقليدي للقصيدة، وهو امتداد للشعر النبطي المعروف في الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، وقد تأثر بهذا الشعر عدد من شعراء الرقة وكتبوا على منواله مثل: حسين العلي العصمان، محمود الذخيرة ،محمد الذخيرة،أحمد القريقط، علي الكلاح، خلف الكريدي والقصيدة البدوية المعاصرة (كالقصيدة العربية القديمة، تبدأ بالغزل القليل البسيط المؤثر، ثم تنتقل إلى وصف الإبل والصحراء فتطيل في ذلك لتصل إلى غرضها من مدح أو فخر، وغيرها من فنون الشعر)[١]

لا ينظم الشعراء البداة قصائدهم على أوزان الخليل بن أحمد بل أنهم ينظمونها بأوزان عديدة، يقول عن ذلك عبدالله ابن خميس (من الصعب حصر الشعر الشعبي في أوزان محدودة، بحيث توضع لها تفاعيل ويستطيع الدارس، عن طريق إتقان هذه التفاعيل، أن يلم بأوزان الشعر النبطي)[٢]

يعتبر القصيد وجهاً من وجوه الشعر النبطي والشعر النجدي، وهو ذو قافيتين، قافية في صدر البيت وأخرى في عجزه.

أويــــل قلــــبٍ مـــــسنو لواكيـــــع   مــن زغـر ســني الليــالي غــدرني

علــى غريــرٍ كامــل الــزين ومطيــع   أبــو عيــونٍ بلحظهــن يـــذبحني

---

(١) عبدالله ابن خميس. الأدب الشعبي (ص ٨٤).

(٢) المرجع السابق (ص٥٦).

شكرا الذويبة طول باعات اليبيع **مصبوغة الرجوان من غير بني**

امدور الخدين بدر المطاليع **نجمة الثريا بجبينو أظني**

ويمكن أخذ تقسيمات الشعر النجدي في القصيد ليقسم إلى:

١- الديواني ٢- الحربي ٣- الهجيني ٤- القلطه ٥- السامري ٦- الحداء .

يسمى القصيد تسميات مختلفة في مختلف أنحاء الوطن العربي وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بانتشار العرب البداة. فيسمى في مصر بالأصمعيات، نسبة إلى الأصمعي، وفي الحجاز بالحميني وفي المغرب الشعر الملحون، وفي المشرق يسمونه لحنة الحوراني نسبة إلى منطقة حوران في سوريا، إلا أن الاسم الغالب له هو الشعر النبطي.

ويقول عبدالله ابن خميس عن سبب تسميته بالشعر النبطي (والذي يجعلنا نشك في أن مصدر هذا الشعر هم النبط وحدهم، إن هذه التسمية - النبطي - لا وجود لها إلا في جزيرة العرب أو غيرها من الوطن العربي كلّه، وأسماء مختلفة من قديم الزمان.

من أشهر القصائد التي كتبت على هذا اللون، قصيدة الخوارد التي تنسب لـ (عبد الله ابن الشريف حسين) والتي يقول في مطلعها:

يا خوارد بي موارد بير زمزم **دالعات دلوع والمجول شفوف**

محمرات مضمرات بلون عندم **يا عذاب صبيّ حوافٍ يحوف**

والتي عورضت من قبل عدد من شعراء الرقة.

كما نظمت منه الليدي "جانيت دعبي" القصيدة التي تقول في مطلعها:

يا ونتي ونة دوالي بعجاجه **يلعب بها سكر الهوى فوق مزعاج**

يا عين ريمٍ جافله من زراجه **مجفلو ريح العطاطيب بنواج**

حطيت لك ريش النعايم وساجه **والصدر لك يا فارس الخيل مدهاج**

والتي عارضها الشاعر محمود الذخيرة بقوله:

حـط الـشفاف عالـشفاف بركـاده وشـف المعتـق مـن ثنايـا تقـل عـاج

خـذ الهـوى يـا بعـد عمـري بكـداده لـي شـولت مـا تنفـع الرعـود وبـراج

كما نظم منه الشاعر محمد الذخيرة:

فوقهـا قـرمٍ خبيـر بكـل ديـره مـن بـلاد الـشام للبـصرة وطاهـا

حـان وقـت الـصيف وشـتد الهجيـرة جـال شـط مـراد تـو طابـت هواهـا

ينتهي القصيد على الغالب بالحكمة:

ما صاح حادي العيس وسط البساتين ولا رد لله هيجـيج الـذود فـلاح

ويكتب الرقيون لوناً منه ولا يتقيدون بقافية الشطر الأول:

علـى مـا تحيـد عـن دربـي علـى مـا أريـد أنـسى وأودعـك بالـسلامه

أيـا ذيـب البـراري شـبيك تـرزم عجـب مثلـي اللـي مـضيعك فطامـه

اسـمك ذيـب واسـمي مولـع بهـن واسـم الزيـن عالـدوم يتنـامى

والبحث في القصيد يطول فهو متنوع بأشكاله ومواضيعه بيد أنه وإن نظم من أهل الريف يبقى حاملاً مفردات البداوة ولحنها، متميزاً عن غيره من الألوان الأخرى بنظمه على شكل قصيدة وتنوع مواضيعه في القصيدة الواحدة. وهو عذب بصورة رائعة، تدفعنا إلى أن نقف بإجلال أمامه وهو ينبض صدقاً وبداوةً وعروبة.

من نماذج القصيد الرقي

وايليه

شعر محمود الذخيرة

ياغزال جوّذري قلبي صويب … من طلق عينين تصيب المايصاب
من ضنا عنّاز من فرع نجيب … وايليه معصّمه بعال النساب
ياعيون صادفتني عالقليب … كالرشا: بالقرب مفتول الهداب
يا مساء الخير يا شمس المغيب … بوسط ديمه مبركعه كصة رباب
واسنات الطرف بالرمش الهديب … امسكره والضل يوحي لك ضباب
انا مدري إنها فوراً تصيب … من حداق ممهنات بالصواب
يا وصاف الريم والمبسم رطيب … يبان زمة فاه من حدر النقاب
اللوالح عانكت جيد جذيب … لفتة الشيال من ريح العطاب
والثماني تخايله برق قريب … انحدر من فوق هاتيك الهضاب
مكور النهدين عالصدر الخصيب … كالقواذف صوّبت روس الحراب
والشعر يلتاح زهلول شذيب … كاسدول الليل غاشيه السحاب
من تمور الجوف منقوع بحليب … ذابل المشفوف معسول الرضاب
وردة الوحواح في فصل جديب … يفطم البيبات من درها تهاب
راكوبة ملواح بالنخل الركيب … ما مسها البلاح في عال الرطاب
موّارة الملجاج بيوم عصيب … تهدهد المكنون وتذل الصعاب

يحـــتري البـــزاز بالخـــصـــر اللبيـــب	ويبتلـي الجـزاز فـي لـين النـداب
اوجـس كلامــه لــي شــدو العنــدليب	واطرب على نبرات من صوته تناب
الله ثـــــم الله البــاري المجيـــب	فاتنــه مـن حسنها شيـب وشبــاب
مـن وهيـــج شـفاه القلـب بلهيـب	كاسـنا الرظـوف بكثـبان وســراب
لـو تلمـس علتــــي حتمـاً تطيـب	والـشـفا مبـرور عنـدك لـه سبــاب
يـا ونتــي لفرقــاه ونــات الـضريب	اللـي يتـألم والجــرح مالـه طبــاب
والقلـــب يبكـي علـيهم لـه نحيـب	كـا نحيـب المــركب الـشـق العبـاب
واتنهـد حــســرة فـي كبـدي تـذيب	كـا نهيـد الجــدول البيـه اضـطراب
يـاهواهم داح بـي صـدري الرغيـب	واصـبحت ملهـوف كـاثروا الرغـاب
وشــتكل رحـــل الحيـاة بـلا حبيـب	لاطعـــم بيهــا ولا فيهــا اســتعاب
يـا ظريـف الطـــول لمنّـك تغيـب	ابمهجتـي عبـرات وبروحـي اكتئـاب
الهواتــف صــــافنات بـلا مجيـب	مهــدلات كامـــــراخـــي الطنــاب
وليـا هتـف مـشتاق موصـوت غريـب	يـا هـلا ومرحـب ياغالـــي يـا عـذاب
اسـتغفر الرحمـــن مـن زلـة تعيـب	نرجيـه يـوم الحـشر حنـا والـصحاب

التشاطيف

من ألوان الشعر الشعبي الرقي

التشاطيف

يميل ابن البيئة البدوية وشبه البدوية، إلى الهدوء والسكينة والتباطؤ في حيثيات حياته اليومية، سواء كان ذلك في تنقله أو رعيه لمواشيه، على نقيض سكان المناطق الجبلية الذين يمتازون بالشراسة والشدة، بيد أن هذه الصفات تنعكس على الشعر والغناء في هاتين البيئتين، فنجده في البادية هادئاً في شعره وأغانيه، أما في الجبل فنجده يميل إلى الصراخ فيها.

سمة الهدوء هذه ليست قاعدة تامة، بل إنها غالبه إذ أننا نجد في البيئة الفراتية عموماً والرقية خصوصاً، وإلى جانب تلك الأغاني الهادئة البسيطة كـ (العتابا، الموليا، النايل و السويحلي) أغاني أخرى سريعة بإيقاعاتها، لكنها لا تخلو من مسحة الهدوء في مفرداتها، يطلق على هذه الأغاني مسمى "التشاطيف".

والتشاطيف: أغانٍ إيقاعية خفيفة تكتب على أربعة أشطر، أشطرها الثلاث الأولى موحدة القافية، أما الشطرالرابع فينتهي بما تنتهي به قافية اللازمة التي يتكرر ترديدها في الأغنية.

ومن نماذج هذه التشاطيف

أ. **الما مر:** وهو لونُ ينظم ويغني في الجزيرة السورية والعراق، وقد اختصت مدينة الرقة بجانبٍ كبير منه، وغنى هذا اللون مطربون كبار حتى أصبحت منه أغنية يمكن تسميتها بأنها عربية، لشهرتها.

يعود أصل التسمية إلى كلمة (مرور) ويقصد فيها بالذي لم يمر ويحمل في مدينة الرقة مسمى (أبو الخديد) ويقصد فيه ذا الخدود مثل (أبو الخديد الوردتين الياعم، أبو الخديد الوردتين الصاد، أبو الخديد الشبه ورد الخاثر..........).

ينظم الما مر على أربع شطرات الثلاثة الأولى موحدة الروي أما الشطر الرابع فإنه ينتهي بحرف الراء.

أبـــو الخديـــد الـــوردتين الصفـــصف وذهوب ابو لعيبه على قصتو صف[١]

انـــدورالعانات مـــن صـــف لـــي صـــف مـــذهب حبيبـــي والـــدمع لـــو مبثـــر[٢]

غالب ما نظم في الشعر الشعبي من هذا اللون يبدأ بـــ (أبو الخديد) إلا أن بعض الشعراء خرجوا عن هذا النهج، وجعلوا من مدخله حراً.

صـــفار زلفـــك مـــن جـــنس والا حنـــه دق ابـــو لعيبـــة هـــرجكم واللحنـــه

خـــايف علينـــا يـــاترف والآ حنـــا نـــصبر علـــى جـــور الزمـــان ونقـــدر

ب: زريف الطول: اتخذ هذا اللون مسماه من مطالع أغلب أبياته والتي تبدأ بكلمة (يا زريف الطول) أي يا ظريف الطول، وقد انقلب حرف الظاء إلى زين كون هذه المفردة قادمة إلى مدينة الرقة من بيئات أخرى.

يقلب فيها حرف الظاء إلى زين:

وهو أيضاً بيت بأربع شطرات أشطره الثلاث الأولى موحدة القافية وينتهي شطره الرابع بالألف أو الأحرف القريبة منها كالهاء المخففة ومن نماذجه:

يـــازريف الطـــول يـــابو ســـنٍ ضـــحوك ومـــا ربيـــت إلا بحـــضن امـــك وابـــوك

يـــــــوم اســـود يـــوم قـــالولي خطبـــوك نـــــار قلبـــــــــي والمـــشاعل عالجـــه

---

(١) صف صف: كلمة إيقاعية استند عليها الشاعر لبناء قافية بيته، ويكرر استخدامها الشعراء بهذا اللون كـــ (اللا لا) – ذهوب أبو لعيبة: أي الذهب الذي صيغ لدى الصائغ أبي لعيبة.

(٢) العانات: جمع مفردة عانه وهي فصيحة مذهب: فاقد الشيء الثمين.

زلفك شعرك المرسل: ويقصد بهذا الشطر: هل كان اللون الأصفر طبيعي أم أنه من صبغة الحناء؟

هرجكم : حديثكم – اللحنه: لحنه.

وهناك ألوان أخرى كـــ (الأسمر اللون اللون) وأغاني الطواح وهي أقرب إلى الأغاني الخفيفة التي يتم نظمها ولحنها بشكل متكرر وهي بحاجة إلى دراسة موسيقية أكثر منها إلى دراسة أدبية.

هذه هي بعض نماذج ألوان التشاطيف، والتي أراد منها الشاعر الرقي والمغني كسر قيود التباطؤ والهدوء وفي جانبٍ آخر الحزن وهي عذبه كألحانها شجيّة كمفرداتها، جميلة كصورها.

الباب الثاني

أحاديث على الهامش

مراسم الزواج و أغانيه في الريف الرقي

الزواج في اللغة، اقتران أحد الشيئين بالآخر وازدواجهما بالآخر، فيصيران زوجا و كانا قبل منفردين.

وهو سنة من سنن الحياة و آية من آيات الخالق سبحانه وتعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾. الروم /٢١/

وقد تنوعت مراسم الزواج وإن تشابهت في بعض الجوانب من منطقة إلى أخرى كما تنوعت أغانيه.

ومن ذلك أخذ الريف الرقي خصوصية في مراسم الزواج، ويمتاز الريف الرقي بكثرة تزاوج الأقارب.

وعلى الغالب تكون العروس من انتقاء أحد الوالدين أو كليهما. وقلمّا يكون أحد العريسين هو الذي يحدد شريك حياته و يخضع هذا الانتقاء لشروط معينة يضعها الوالدان مسبقاً، يشرف بعضها أحياناً على الاستحالة.

مما يجعل الشاب أو الفتاة عرضة لاستمرار العزوبية أو فشل في الحياة الزوجية إن بنيت على ذلك في أغلب الأحيان ونادراً ما نجد في الريف الرقي ظاهرة العنوسة والتي كان سببها الرئيس الحيار.

تلك العادة التي ذهبت أدراج الرياح وقد تلاشت ظاهرة العنوسة نظراً لانتشار ظاهرة تعدد الزوجات أما عن الحيار فانه أفني نتيجة لما وصل إليه أبناء هذه المنطقة إلى درجة عالية من الوعي جعلت الشاب منهم تأبى نفسه التزوج بمن لا ترضى به زوجاً.

يبدأ الزواج بالخطبة التي هي مقدمة له و نتيجة لدراسات معينة يقوم بها أهل العريس ثم بعد إبداء موافقة الجانبين يقومون بإرسال الجاهة والتي تتكون عادة من أهل العريس و أقربائه وإذا ما صادف ورفض أهل العروس دون سبب مقنع يتدخل عندها شيخ العشيرة بشخصه بالخطبة ولا يكون أمامهم عندها إلا الموافقة.

تميل الفتاة الريفية الرقية إلى الشاب الكريم والمقدام بآن واحد وترفض البخيل والجبان وقد وصفها الشاعر بقوله:

الريمـــة القاتلـــة الـــصباغ بـــالنيلي لبـست ثويـب أحمـر مـا تقبـل النيلـي

قالـت مـا أريـد العفـن لونـو يبنـي لـي قـصرين فـضة وفـوق القـصر عليّـة

لا تكتمل الخطبة إلا بتسليم المهر لذوي المخطوبة، فان تراجعت المخطوبة أوذووها فإن المهر يعاد كاملاً للخاطب، وإن تراجع الخاطب فإن أهلها يحسمون مبلغاً من المهر يسمى (القمعة) وهي غرامة تفرض على الخاطب لما ألحق بالمخطوبة من أذى معنوي وهي حالة نادرة.

لا تتجاوز مرحلة الخطبة في الريف مدة خمسة عشر يوماً ليتم الزفاف وهي حالة ايجابية إلى حد ما.

بعد الخطبة يبدأ الطرفان بإعداد ما يعرف بـــ (الزهاب) وإقامة التعاليل والدبكات.

الزهاب: هو لباس العروس وأثاث بسيط لبيت الزوجية وتعده العروس من مهرها كما يقوم العريس بإعداد جزء منه ليشترك الاثنان في بناء بيتهما الجديد وعلى الغالب تحضر العروس معها أدوات زينة ذهبية تتزين بها من جهة ومن جانب آخر تلجأ إليها في حال تعرضها لفقر أو حاجة.

التعاليل: وهي سهرات ليلية يقوم بها عدد من مؤدي الأغنية الفراتية وتكون في ساعات متأخرة من الليل ويمكن تقسيم أغانيهم إلى ثلاثة أقسام وذلك بنسبتها إلى الأدوات الموسيقية البسيطة التي يرافقهم عزفها أثناء الأداء.

أغاني الربابة: وهي العتابا والنايل والسويحلي والموليا واللكاحي، ونختار من العتابا:

يا بو مبسم كما الفنجال ونشف   ريجي ذبل من طرواك ونشف

أنا لأسأل طبيب الهند ونشف   مثل علتي ويوصف لي دوا

ومن الموليا:

لي هاج بحر الهوى الزين ملاحي   حتى العذيمي تباهى حين مالاح

اركض وراهن و أصيح املاح   كلجن حوارم ترى من غيرها هيّه

ومن اللكاحي:

حس الموازر جنا من مرج ابن جنعان   يا طروش قولوا لولفي العفن ولاني

أغاني الدف: وهي الموليا والتشاطيف تفصل بينها أحيانا أغاني اليايوم وهو من كلمات اللكاحي ولكن بلحن مغاير يمتاز بالبطء ولا يرافق بأي نغم موسيقي.

أغاني المزمار: وهي مزيج من الأغاني السابقة دون العتابا.

الدبكات: وهي عبارة عن رقصات هادئة ذات حركات متكررة من ضرب الأرض بالأرجل وتقدم خفيف إلى الأمام وتراجع إلى الخلف، وهي حركات نسبية تختلف من لون إلى آخر من بين ألوانها الأربع، وتختص الفتيات أحياناً بنوعي الهللي و المفتول تلك الدبكة القادمة من منطقة حوران تترافق الدبكات مع عزف المزمار وعدد المشاركين فيها غير محدد كونها عبارة عن حلقة مفتوحة يشارك بها كلا الجنسين وبعض المغنين وعلى الأخص أقارب العريس و أصدقاؤه.

الحناء: وترسل مادة الحناء معجونة بأوان من بيت العريس إلى العروس مصطحبة بالأغاني و الزغاريد و الأهازيج التي تؤديها الفتيات.

يارايح عالدير وجف تاقول لك   كثر من الحنا لبنات عمك

وتخضب العروس شعر الرأس والكفين والقدمين بمادة الحناء وتوزع ما زاد على ذلك لقريباتها وجاراتها.

شياب العرس: وهي تمثيلية بسيطة لا يتجاوز أبطالها خمسة مشاركين منهم من يمثل دور العروس، وآخر دور العبد وهي ببساطة ملخص لبعض مراسم الزواج و تقام في الليلة السابقة لحفلة الزفاف.

الصبحة: وهي وليمة يقدمها العريس قبل قدوم عروسه مكونة من الثريد ولحم الضأن و يبالغ الريفيون بهذه الوليمة:

يـا ذبـاح الـصبحة اذبـح عجالـه　　　عيـون علـى العروس عيـون الغزالـة

الزفاف: ترتدي العروس أثناء زفافها عباءة ومنديل أبيض تغطي به وجهها في حال كانت بكراً وتجلس في بيت أبيها ليقوم هو أو أحد أبنائه بأمرها بالذهاب إلى بيت زوجها، ثم تنتقل للبيت تعلوها الزغاريد والأغاني وتقوم النساء بترديد الطواح الذي لا يردد إلا في مرحلة زفاف العروس ومن نماذجه:

جينـاك أبوهـا بالـشهر الأول　　　وشـعلقم للخيـل رز مـصول

أم العريس فاضية مشغولة: ونحن بصدد الحديث عن الزواج يظهر لنا المثل الشعبي الذي يقول:

(أم العريس فاضية مشغولة) حيث تكون أم العريس أثناء عرس ولدها وجلة تبحث عن عمل تقوم به فلا تجد لذلك تشارك الجميع أعمالهم دون جدوى ويمكن وصفها بأنها تعمل كذلك ويمكن وصفها بأنها لا تعمل بآن واحد وإن كان الزواج يدخل الفرحة في قلب الكبير والصغير من أبناء الريف الرقي فإنه يكون أحياناً سبباً لمأساة تذهب ضحيتها أرواح بريئة ترهقها رصاصة طائشة من يد أرعن نظراً لاصطحاب مراسمه بإطلاق أعيرة نارية على الرغم من صرامة القوانين تجاه ذلك لتفقدها بريقها وعذوبتها وعذريتها وألفتها وتلك المسحة الإنسانية التي تملأ وجه ذلك الإنسان الفراتي الطيب والصادق بعفويته.

ولم تكن هذه المراسم مقتصرة على أهل الريف فحسب بل إنها كانت لسكان مدينة الرقة أولئك الذين قطنوها قبل النصف الثاني من القرن الفائت، أما الذين جاؤوا بعد ذلك فإنهم حملوا معهم مراسم خاصة بهم إلى حد ما فأخذت تتحد ومراسم الريف في صالات وضعت خصيصاً لذلك بعد أن غطت مظلة الحضارة هذه المنطقة.

طقوس الحزن و أغانيه في الريف الرقي

يعرف الرثاء بأنه شعر يتضمن عواطف صاحبه نحو ميت وتتأرجح هذه العواطف ما بين التفجع ومدح الميت مروراً بالحزن المعتدل وقد عرف العرب شعراء رثائين في العصر الجاهلي كالمهلهل والخنساء وأبو ذؤيب الهذلي في العصر الإسلامي و قد تبوأت الخنساء ذروة هذا الشعر في رثائها لأخويها صخر و معاوية ومما قالته في رثاء أخيها صخر:

قذىً بعينك أم بالعين عوار ... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عيني لذكراه إذ خطرت ... فيض يسيل على الخدين مدرار

تبكي خناس على صخر و حق لها ... إذ رابها الدهر إن الدهر ضرار

وإذ ما بادرنا إلى البحث عن بذور هذا الفن الشعري في ريف الرقة كأحد أرياف وادي الفرات لوجدناه يلتقي و شعر الخنساء بسمتين بارزتين:

الأولى: إنه شعر نسوي النظم

الثانية: إنه يقتصر على ذكر مناقب الميت

كما ويقابله في البلاد العربية الأخرى العديد في مصر و النصارى في العراق و لوجدناه ذا نبرة حزينة مؤثرة تأثيراً حاداً على النفس حيث يدفع الدموع إلى الانهمار المباشر.

يعرف في الريف الرقي لونان من أغاني الحزن:

أولاً: النعي. **ثانياً:** القول أو الندب.

ومع أن كلا الاسمين يندرج تحت معنى واحد إلا أن العارفين بهذا الشعر يصرّون على تفريد التسمية و سنعرج مبسطاً على كل منهما.

أولاً النعي:

وهو صورة من صور الرثاء و يعرف باللهجة المحلية باسم (النعة) كما أنه بيت بشطرين مقفيين بقافية واحدة و هو مزيج من الشعر والسجع بآن واحد كقول الشاعرة تصف رجلاً بأنه كالسبع و كالفرات أثناء فيضاناته عندما يهدم أطراف الأراضي المحاذية له:

يركب أصيلاً و لا يهاب أحداً.

يـــا ســـبع يـــا هـــداد الجـــراف   راكـــب عـــزوم ومـــا يخـــاف

يردد النعي في المآتم كصورة من صور المراثي حيث تنشده النائحة وتردده النساء الأخريات بصورة حزينة وبكائية ويمكننا أن نصنف النعي إلى تصنيفات مسندة إلى جنس المرثي أوعمره أوصلته بالراثية أوصفاته كالشجاع المقدام والجوّاد الكريم والمرأة الجميلة والكريمة والمعطاءة والمدبرة.

في الرجل المقدام الشجاع:

إنه كالسبع ذي الناب الأصفر و لفقده صاحت وندبت وقالت أنه يوم أسود:

يـــا ســـبع يـــابو نـــاب أصـــفر   صـــاحت و قالـــت يـــوم أكـــشر

وأين أنت أيها الذئب لقد غابت الشمس فعد

ذيـــب البـــراري يـــا مـــشوح   غابـــت عليـــك الـــشمس روح

وهو كالسبع يتقدم إلى مورد الماء و يأخذ الأولوية من بين وارديه:

عربـــــان عـــــالبير وردم   وذاك الـــسبع بـــيهم تقـــدم

وانه لعجل الحركة ويليق له حمل السيف لأنه كريم و شجاع:

الـــسيف يلبـــق لـــك يـــا عاجـــل   بيـــك الغنيمـــة و المراجـــل

اقترب مني أيها الشجاع قد جاءني الذميم وعجل لتحميني فلقد أوشك على أن يصلني:

شـــوف العفـــن شـــيريد منـــي   خفـــف جـــدامك لا يـــصلني

وهو من أولئك الذين يمشون في السوق الرئيس ويتأبطون أسلحتهم دون المخافة من أحد:

يمـــــشون بالــــسوق الغـــداني   و بجــــــانبهم لاحـــــت ردانـــــي

في الرجل الكريم:

إنه من أولئك الذين لا يذبحون إلا أنثى الغنم الصغيرة وذلك لشدة كرمهم وغنيمتهم:

مـــا يـــــذبحون ألا الفطيمـــــة   مــــن زود الكـــــرم والغنيمـــــة

ومن الذين جلسوا قرب بركة الماء والعشب فأرسل طالباً القهوة المرة و الفناجين ليرتشف الضيوف منها:

قعـــــدم علــــى بركــــة ونجيــــل   ودزم علـــــى دلــــة وفناجيـــــل

ولقد أجادوا وفي جودهم ضرب من الجنون ولكثرة كرمهم لم يجمعوا مالاً:

كــــــرمم و كــــــرمهم هبـــــال   ومـــن زود الغنيمـــة مـــاجنم مـــال

وهو ينتقل على طرفي المرجل ليفرغ اللحم في المنسف و يزيده أكثر:

ينـــــدار و الكفكيـــــر بيــــــدو   واجـــف علــــى المنــــسف يزيــــدو

في الرجل الوجيه والحكيم و ذي الرأي السديد:

لقد فقدنا ذلك الرجل الذي يشبه البلبل في ذكائه عندما يجلس في مجلسه ولقد احتجناه هذا اليوم الذي يفقد فيه من هو مثله:

يـــا بلبـــل المجلـــس فقـــدناك   عنـــد اللـــزوم اليـــوم عزنـــاك

وهو الذي يقصده أقاربه دائماً ليشاوروه فهو صاحب الرأي والمشورة:

عمامــــك ورا بيتـــك كعـــود   و أنـــت عليـــك الـــشور مـــردود

وهو من ذوي العلاقة الحميمة مع أولي الأمر:

علـــى بـــاب الـــسرايا قبــت فـــراهم   والنـــــزل الغربـــــي تنــــــاهم

وخيولهم دائماً تربط قريباً من السرايا:

علـــى بـــاب الـــسرايا ربطـــم خيـــل   وفـــــاتم علـــى الحكـــام بالليـــل

وصوته يؤنس في المجلس فقد خشيت المجلس لأنها لم تسمع صوته فيه:

جيـــــت للمجلـــــس وهبتـــــه   و صـــوتك يـــا عينـــي مـــا ســـمعته

ولم تقتصر الاستشارة على الأهل والأقارب بل أنها وصلت إلى الحكام أيضا:

الـــبس عباتـــك واطلـــع ايـــدك   الحـــاكم الـــ بالرقـــة يريـــدك

في الرجل القريب وولي الأمر (أب، أخ، ابن، عم):

لقد تركها أبوها كالعمياء في بيت مروق:

يابـــا شـــلون بيـــوم الفـــراق   عميـــــة وملفوفـــــة بـــــالرواق

وهي تبحث عن وليها وهي متعبة و طريقها بعيد:

دربـــي بعيـــد وشـــايله ابنـــي   بيـــت الحنـــون أصـــوب مبنـــي

وهي تتمنى له الشفاء لأنه كالعمود الذي يرفع البيت:

عـــسى الـــولي طـــاب وبـــري   شـــايل عمـــد للبيـــت يبنـــي

وهي تجد مرافقة أولياء الأمر عذبة عندما تكون الأراضي خالية حيث لا تخاف احد و الجود ممتلئ بالماء لا عطش أيضاً:

يـــا زيـــن رفجـــتكم يـــا وليـــان   بـــأرض الخـــلا والجـــود مليـــان

ومن ليس لديه رجال تحميه فهو ذو حظ سيء:

مقـــــرود يالمالـــــك رجـــال   لونـــــك ســـــبع ســـموك ذلال

ولم تبغ منه جملاً عطاء وإنما تريده ولي أمرها يحميها فقط:

مـــا ريـــد منـــك جمـــل بهجـــار   أريـــدك ولـــي وأجـــاورك جـــار

ولم ترد منه ثوباً لابنها وإنما تريده أن يبني بيته بصدر البيوت:

مـــا ريـــد منـــك ثـــوب لابنـــي أريـــدك بـــصدر النـــزل تبنـــي

في المرأة الحسناء الجميلة:

لقد كانت بيضاء كإبريق الفضة بيد الوالي خالية من العيوب:

بيــــضا ومـــــا بهــــا لـــــولا مثـــل بـــريج الفـــضة بيـــد مـــولى

وهي تمشي بغنج و رغد ورأسا قدميها رفيعان:

بيـــضا وروس جـــدومها رفـــاع تمـــشي رغـــد مـــا توجـــع القـــاع

وهي جميلة ترتدي الجوخ و عريقة النسب ومتزوجة من وجهاء القبيلة:

حلـــوة ولبـــست بـــدن جـــوخ بنـــت الحمولـــة وكنـــة شـــيوخ

فمرحباً بها عندما تقبل كالشمس وتبعد عني الهموم:

يـــا مرحبـــا بالـــشمس هلـــت وهمـــوم قلبـــي اليـــوم حلـــت

ما أحلى عقيدات الهباري برقاب اللائي يشبهن غزلان البراري:

يـــا حلـــو عجـــدات الهبـــاري برقـــاب غـــزلان البـــراري

فضعوا عباءاتكم ظلالاً لها حتى تتكئ تلك التي تشبه الغزالة بحسنها:

حطـــم شـــواليكم ظـــلال تـــاترتكي عنـــز الغـــزال

في المرأة المدبرة:

إنها مهيأة للعمل دائماً وما أحلى حزام الشويحي على خصرها:

مـــشكلة والثـــوب قاصـــر محلـــى الـــشويحي عالخواصـــر

وبيتها مميز عن بيوت الأخريات و لو خيرت بأن أموت عنها لاخترت الموت:

بيتـــك معـــدل عـــالبيوت ولـــو يـــصيرلي عنـــك لأمـــوت

معدلـــه و الـــروج عـــالي وتـــصير كنـــة للمـــوالي

وهي صاحبة مشورة ورأي حيث ورثت الرأي السديد من والدها:

تعـــــالم عليهـــــا شـــــاوروها يـــشورها مـــن شـــور أبوهـــا

في المرأة الكريمة المعطاءة:

عندما تكون أماً معطاءة فإنها تجزيها وتجالسها ولا تهاب الطريق البعيدة:

أمـــــي تـــــسيرني ونقعـــــد وآنـــي علـــيَّ الـــدرب مبعـــد

ويا مرحباً بها عندما تقبل وتلتفت ولا أدري ماذا خبأت لي من العطايا:

يـــا مرحبـــا جتنـــي تلفـــت وبردانهـــا مـــدري شـــلفت

وأهلاً باللائي يحملن العطايا حيث ملئت الأواني فيها:

جـــاني الجـــدح يغـــرف ملاتـــو يـــا مرحبـــا بالجايبـــاتو

وإن اللائي عاشرنها يبكين لرحيلها ويترحمن على عظام أبويها:

يبكـــي عليـــك العاشـــروك يـــرحم عظـــام الخلفـــوك

ثانيا : القول أو الندب:

وهو صورة من صور الرثاء أيضاً تردده النائحة في حلقة تسمى حلقة الندب وهو ذو أوزان منوعة ومتكئة في جانب منها على ألوان الشعر الشعبي الأخرى عالعتابا والمدائح الدينية.

ويظهر أحياناً بوزن مبتكر لأول مرة وعلى الغالب يأتي على شكل بيت بأربع أشطر الأول والثاني والرابع موحدات الروي أما الشطر الثالث فيأتي بقافية حرة:

طالـــت أيامـــي و البعـــد مـــا طـــالي شـــد المعـــارج و أركـــب الخيـــال

حزنـــي علـــيهم بالقلـــب لـــو دويـــة رعيـــد زلـــزل مـــن عـــوالي الجبـــال

وأحياناً الثلاثة الأولى موحدة الروي والشطر الرابع بقافية مستقلة تتحد والأبيات اللاحقة ، حيث يستخدم عندها البيت الأول كلازمة يسمى هذا اللون من أغاني الحزن أحياناً بالندب ويرى الأستاذ محمود الذخيرة أنه امتداد لما

كان يسمى بالجاهلية بـــ (النصب) ويقول في ذلك عندما جاء الإسلام وقضى على الكثير من التقاليد الجاهلية بقي النصب عند بعض القبائل حيث تقوم النساء بنصب عود من الخشب وتلبسه حلة الرجل المتوفى ثم يتبارزن في رثائه:

علــى أهــل المرتبــة و الــسيط عــالي عمـــد بلـــوط بيـــت الـــشيخ عـــال
حلـــف دهـــن المزابـــد مـــا يحطـــو إلا مـــــن الظـــــرف صـــــافي زلال

ومع أننا أردنا أن نتجاوز هذا الجنس الشعري دون إضاءة وذلك لأن طقوسه اندثرت ولتلك الصورة الحزينة السوداء التي احتواها وتلك المسحة المأساوية المؤثرة التي أحاطت به ولإدراك أهالي الريف الرقي لحقيقة هذه العادة شبه المنبوذة وتمشيّاً مع ذلك القالب الحضاري الذي توصل إليه العالم اليوم إلا أننا آثرنا الإشارة إليه ودراسة جانب منه وذلك لما حملته تلك الأشعار من صور جميلة وحكم وحث على الأخلاق الحميدة والسيرة المحمودة لأنها الوحيدة التي تبقى للإنسان بعد أن تختطفه يد القدر من حياته الدنيوية.

الكلمة الأنثوية

ظاهرة الأدب الأنثوي ليست جديدة المنشأ في الأدب العربي، بل إنها قديمة قدمه، وتكاد تعاصر بداياته. وقد ذكر لنا التاريخ أسماء لشاعرات كثر، تبدأ بـــ "الخنساء" التي قال فيها "النابغة" في أحد مواسم سوق عكاظ (اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين. ولولا أن هذا الأعمى أنشدني قبلك (يعني"الأعشى") لفضلتك على شعراء هذا الموسم فإنك أشعر الإنس والجن) [١].

وقيل لـــ "جرير" من أشعر الناس؟ قال: أنا لولا هذه الخبيثة (يعني الخنساء)[٢].

وقال "بشار" لم تقل امرأة الشعر قط إلاّ تبين الضعف فيه: فقيل له أو كذلك "الخنساء".

قال: تلك فوق الرجال، ومنهن "هند بنت عتبة" القائلة (نحن بنات طارق، نمشي على النمارق، مشي قطا الهمارق). و"ليلى الأخيلية" التي عاشت في العصر الأموي.

وقد عرف العصر الحديث أسماء لا يستهان بها، كـــ "نازك الملائكة" إحدى ركائز الحداثة الشعرية و" فدوى طوقان" و"هند هارون".

وإذا ما كررنا النظرة ذاتها في الأدب الشعبي الرقي، نجد أن هذه الظاهرة تختفي، أو بالأحرى تكاد تكون معدومة. فكل ما يثبت من الشعر للنساء، يدخل ضمن إطار النعي (أي ذكر مناقب الميت). وهو نظم خاص

---

(١) ديوان الخنساء (١+٢+٣).

(٢) المحيط في الأدب جبران مسعود.

بالنساء، له موسيقاه الشعرية، وفنونه، وطقوسه، وأطواره الموسيقية، وهو أقرب إلى الوثنية، وينافي مفاهيم الديانات السماوية.

وقد ورد النعي في الشعر الجاهلي، يقول طرفة بن العبد في أحد أبيات معلقته المعروفة.

فإن مت فانعيني بما أنا أهله   وشقي علي الجيب يا بنت معبد

لكننا حين نسلك سبل الاستنباط والاستنتاج، ونعتمد على القرينة، نجد ما يناقض الواقع المعروف – أي أن الشعر لم ينظم من الشعراء فقط – وخصوصاً في الشعر المغنى، أي في الأغنية الشعبية الرقية، أو ما يعرف محلياً باسم (الغناوة)، وإذا ما وضعنا لغة الخطاب جانباً واهتدينا إلى الكلمة الأنثوية من خلال مميزاتها الخاصة وجدناها تمتاز بالشفافية والرقة والعذوبة والحزن الممزوج بالعبرة وخروجها بثورة نفسية تنم عن كبت داخلي، يعود لظروف اجتماعية ونظام عام يضع قيوداً صارمة وشديدة. فما يمتلكه الرجل من سبل للتعبير عن عاطفته بشكل حر، لا يقارن بما يتاح للمرأة. إلى جانب ما تنفرد به كأنثى بشكل عام كالضعف الجسدي والمزاج المتغير والعاطفة الحارة المتقلبة.

ومن خلال دراسة ميدانية أجريناها مع بعض الشعراء الشعبيين وهواة الأدب الشعبي لم نعثر إلاّ على بضعة أبيات لشاعرات معروفات إذ أكد أغلبهم على نسبتها إليهن من الموليا:

يا ضي جبينو يخدو تقول بدر هل   دمعي على خلتي من غير سايه هل

اسايلك بالنبي منت ولد منهل؟   امعطر زياجو من الريحان ممليّة

ومن العتابا:

أيا رمح الرديني و المعد لك   يا ليج للخواطر و المعد.......لك

يا قلبي من بعد ولفك ما عاد لك   حدى يفهم حديثك ....واللغا

ومن العتابا أيضاً:

اشـعجب يـوم رحلـتم ليـه تغربـي ... يـا قلبـي موجـدينو بنـار غربـي

عـسى مـن عقـبكم لاهـب غربـي ... ولا خــب الفريجــي بالنــدى

ومن النايل:

القلـب منـك جفـل. مـا عـاد لـك يفعـل ... تطـارد هـوى غيرنـا وتريـدني مازعـل

وعثرنا أيضا على بعض الحكايات التي تضمنت في مجرياتها شعراً أنثوياً ومما روي لنا أن شاباً قال لفتاة بعد أن حمل راحلتها بالذرا الخضراء:

علـى صـدور قريـت المـيم والـلاف ... لبـو جعـد يـشبه العربيـد لولـف

تـرى البطـان و العرنـوس والـلاف ... حـشيش لكـم يـا مجـدوعين الـذواب

فأجابته قائلة:

حلفـت لـك بيمـين الـشرع مـازال ... هـواكم بخمـص حـشاي ....مـا زال

محـرم علـي معاشـر العفنـين .مـا زال ... انـتم مـذاكير .... بـالهوى

ويقال أن هذا البيت كان مهراً لها.

نعود مرة ثانية إلى خصوصية الكلمة الأنثوية، التي يمكن من خلالها الاستدلال إلى جنس قائلها فإذا ما فردنا ألوان الشعر الغنائي، إلى العتابا، الموليّا، السويحلي، اللكاحي كألوان تحتل الصدارة في الأدب الشعبي الرقي.

أ. العتابا:

فكل ما تقوله النساء من عتابا يعتبر نعياً، وذلك لغلبة لون الحزن عليه، فإلى جانب سوداوية العتابا بشكل عام، يمزج إليها مزاجية المرأة وحساسيتها العالية، وتأثرها السريع بما يحيط بها. جعلت الناس يضعون هذا اللون من الشعر في صنف النعي حتى ولو كان تغزلاً أو فخراً أو شكوى.

يـا حلـوين الـشوارب ....والربنـة ... شواربكم بالسوافي ....والربنة

عسى من عقبكم لانبت ورد..... الربنـة ... ولا خـب الفريجـي ....بالنـدى

لكن هذا لا يحتم خلو العتابا الغنائية من الشعر الأنثوي. إذ أن بعض الكلمات المؤنثة التي تقال بين كلمات الشعر تحدد جنس القائل فاستخدام كلمة (خايرة) بمعنى خائرة إلى جانب طريقة البكاء، وكثرته في البيت التالي تحدد أنثويته:

أبــد مـــا راح طـــاريكم مـــن البـــال   بكيــت وهــرين زيـــاجي مــن البـــال

آنــي علــيهم شــبه خــايرة مــن البـل   تحـــن وعلولـــف تلـــوي رقـــاب

إلاّ أن نظم العتابا صعب، لما يشترط بها من جناس، إلى جانب وزنها العروضي، حيث تكتب على البحر الوافر، بينما تميل الأنثى إلى بحور الشعر التي ترد على تفعيلة واحدة كالرجز والمتقارب بالإضافة إلى خشونة الكلمة مما ساعد في إبعاد الأنثى عن نظم هذا اللون لذا نجد العتابا الأنثوية قليلة، مالم تكن الشاعرة ذات موهبة فذة، كما أسلفت ببداية حديثي عن الخنساء والشعر الفصيح إذا ما قورنت العتابا ببعض الألوان الأخرى كالنايل والسويحلي واللكاحي ولا يغيب عن الذهن أن العتابا أصلاً قليلة النظم في مدينة الرقة، ليس من النساء فحسب بل من كلا الجنسين.

ب. الموليّا:

تكاد الموليّا أن تحتل الصدارة في الألوان الغنائية الرقية كما أسلفنا الحديث عنها ومع كثرتها تندر الكلمة الأنثوية فيها، إلا أنها لا تتدرج بين أشعار النعي فهي غنائية دائماً مهما كانت تحمل من كلمات حزينة وإن كانت نسوية النظم.

أحبـاب قلبـي رحلـم مـا هيرونـي لـيش   أبكـي واهـل الـدمع بـردان ثـوبي امـش

دحقـت غربــي النـزل شـرجي النــزل   أصـُّـوب ابــن الحــلال اليــذكرو.ليّـــه

هذا البيت مجهول الهوية فإذا ما أمعنا النظر بطريقة مسح الدموع (بردان ثوبي امش) ومنهج البحث (دحقت غربي النزل شرجي النزل مامش) و الاستنجاد (أصوب ابن الحلال اليذكرو ليّه) كل هذه السبل أنثوية مما يؤكد أنوثة هذا البيت أما الرجل فإنه يبحث بطريقة مختلفة:

أم القــذل الــشقر عالــصدر ظفــران **اتبــع ضــعنهم إن كــاد الهلــب ظفــران**

ان كــاد بينــي وبينــك جمــع ظفرانــي **لا بــد علــى وصــولها لــو ينــشهر بيّــه**

فقائلة البيت الأول – المفترضة – تبحث عمن فقدته بالنظر شرقاً وغرباً، أما قائل البيت الثاني فإنه يتبع الضعن حتى ولو كانت راحلته حافية بلا نعل (أتبع ضعنهم إن كاد الهلب ظفران)

كما يمكن الاستدلال على البيت الأنثوي من خلال مقاييس الاهتمام، فالرجل تثير اهتماماته ألوان العيون، طول الضفائر، وألوان الشعر (عيونك سود – طوال جعود حبي – أم القذل الشقر).

أما المرأة فتميل إلى وصف الرجل بالقوة، وأثر السيف:

جكــر لكــم يــاهلي لاخــذ التبغــضونه **وأجــدي علــى ركبتــي وأمــشط قرونــه**

لمــن مــشى بــالنزل كلكــم تعرفونــه **ســيفو يحــل الظهــر مــابو رحاميّــه**

ومع أن الموليّا يمكن أن تكون سبيلاً للعاشق والمتيم والمفارق والرجل والمرأة بآنٍ واحد. فيندر ما نجد بيتاً من الموليّا أنثوي النظم وذلك لصعوبة نظمها أيضاً، إلى جانب كونها أغانٍ رجولية أكثر منها أنثوية، فهي تغنى من الرجال. لذلك تنظم من قبلهم. وما وجود الكلام الأنثوي فيها إلاّ حالات نادرة.

جـ. النايل:

يتسم النايل بالفكرة العابرة الخاطفة، وهو سهل النظم من حيث يكتب على البحر البسيط وهو بيت بشطرين مقفيين بقافية واحدة. ولولا ما نظمه الشاعر محمود الذخيرة ورفده الشاعر موسى الحمد للنايل لغلب الطابع الأنثوي على هذا اللون في مدينة "الرقة". فلو وضعنا آثار محمود الذخيرة وموسى الحمد جانباً لكان غالب النايل من نظم النساء وهذا الكلام قابل لإثبات العكس، لكن أغلب المعاني والألفاظ والأفكار الواردة في النايل تدل على أنثويته.

اركــض وراهــم ركــض واخنــق اجــراس مطــواحي

ثــــوبي تبلــــل عــــرق مــــن طــــول. مــــشواحي

فبإضافة ياء المتكلم إلى كلمة مطواح (وهو أحد أشكال القلائد الذهبية التي تتزين بها النساء) تدل على أنثوية البيت ويمكن أن نميزه أيضا من خلال لباس الموصوف فإن كان (هباري وأساور أو تركية) فالمتحدث رجل.

أما إذا كان لباس الموصوف (رويشة أو بشة) فالمتحدثة أنثى:

لبـــــسم رويـــــشة حلــــب وقطـــوش لجلاهـــم

يعزيــــزين الـــــنفس للمــــوت ماســـــلاهم

و:

بـــشتك جنـــاح الـــرخم بكـــل طايلـــة تـــومي

تــــستاهلون الحـــزن ياذيـــب الحزومـــي

وقد تطفو العاطفة الأنثوية على الكلمة الشعرية فتشير إلى هوية البيت:

لاحـــارب الحـــاربوك واجتـــل علــــى شــــانك

وأحـــط ذرعـــاني درك واســـند عـــن أركانـــك

ونلمس في بعض الأبيات حاجة الأنثى لمن تعيش بكنفه.

لمـــن نويـــت تعبـــر وصـــيت مـــن بينـــا؟

مثـــل اليتـــامى بغـــرب عـــد مـــن مخلينـــا ؟

وتتفرد النساء بأحد الألوان اللحنية للنايل الذي يحمل اسم (نايل الورادات) أي جالبات الماء ويمتاز هذا اللون اللحني بالسرعة ومن حيث أن أغلب أبيات النايل عاطفتها ممزوجة بالحزن، وتظهر في كلماته المعاناة والشوق، والألم، والحسرة. وينسجم ذلك مع طبيعة الأنثى وسيكولوجيتها، لذلك كان أغلبه من نظم النساء.

وتقول إحدى روايات أصول النايل، أنه من نظم فتاة قالته بمدح رجل اسمه نايل مما يشير إلى هويته الأنثوية.

د. السويحلي:

يقترب السويحلي من النايل في المعاني و المواضيع لكنهما يفترقان في موضعين، فقافية النايل في آخر الشطر، بينما قافية السويحلي في منتصفه. والنايل يغنى من الرجال أكثر من النساء بينما السويحلي يأخذ الصورة العكسية، لأنه ارق أداءً وينسجم مع الصوت الأنثوي أكثر ومن الباحثين من أورد السويحلي تحت اسم النايل المقلوب وهذه التسمية منتقدة لأنهما يفترقان في الوزن العروضي، وأغلب السويحلي في مدينة الرقة من نظم أنثوي وتدل على ذلك كلماته ومعانيه:

بالسيف قوة عالعفن جابوني   ما هي مرة عن الزين تنحوني

أجبروها عنوة على من لا تهواه بالسيف وأبعدوها عمن تحب فالأنثى هي التي تجبر وقد تكون طريقة الحزن دليلاً على الأنثوية. فصباغة الثياب باللون الأسود صورة لا تنطبق إلا على النساء:

يا ثوب حزني أجرد وأزيدك نيل   اخوي وابني ما هم بغلاة الزين

وتظهر بين كلماته بعض الأدوات الأنثوية (كالمرآة والمرود):

تسبح بالدموع يا مرود عيوني   تحييه الجموع مثل الملك لوفات

فالمرود أداة للزينة الأنثوية وتكون الرقة بصورة أكثر بريقاً في السويحلي:

الله ولحد جلة سلامك ليش   كسر الضلع شد كسر القلوب شلون

ويرد به التشبيه الأنثوي:

الله عاليخون ما طولنا غياب   ليلى على مجنون ما بكت مثل بكاي

فهي تشبه بكاءها على أحبائها ببكاء ليلى على مجنون. وهناك بعض الأغاني الخفيفة ذات الإيقاع الموسيقي السريع، التي تغنى من قبل النساء هي من السويحلي فهو قابل للغناء بأكثر من لحن، وكلها ترتبط بالرقة العاطفية، التي تسكن أمامها القلوب الصادقة الوفية.

كما أن أغلب الأغاني المنتشرة في وادي الفرات مأخوذة من السويحلي كـــ (سودة شلهاني، للناصرية، إهنا يا لحادي) وأغان كثيرة لا سبيل لحصرها، لكن هذه الكلمة (أي السويحلي) تقترن باللحن وهو معروف لحناً أكثر منه كلمةً، وربما كان مصدر هذه الكلمة هو اللحن، لأنه يمتاز بالامتداد الطويل للصوت. حيث يبدأ المغني بنبرة غنائية لا يتركها حتى تتلاشى.

هـ - اللكاحي:

تؤكد أغلب المصادر الشفهية، على أن اللكاحي من ابتكار النساء فلذلك لا غرابة إذا ما وجد بين كلماته كلام أنثوي ولدى البحث في هذا اللون والذي يحمل أكثر من تسمية لحنية (يايوم – ساجوري – ولدة) بالإضافة إلى ما يقترن منه بمطالع الأغاني.

ولو اتبعنا الطريقة ذاتها التي اتبعناها في الألوان السابقة، أي الاستنتاجيه لوجدنا تكافؤاً في النظم بين كلا الجنسين فبقدر ما نظم من الرجال نظم من النساء، واستهدينا على ذلك من خلال استعراض ما يوجد من هذا اللون في مدينة الرقة، وللإشارة نجد:

صـــاحم علـــي مجنونـــة كلهـــم بـــصوت عـــالي

فرقـــة اهلـــي ليلـــة عيـــد فرقـــاك شـــلت حـــالي

فكلمة مجنونة مؤنثة. ويحدد اللباس بعض الأبيات:

يا ريتني منيعة على كتافك وهدومك

فالمنيعة للرجل كما له أيضاً (العقال)

ريت العذيمي لاهب ولا لعبن جواري   قلبي بسود عقالو يدمع عيني جاري

ومن خلال الرقة والأنوثة العاطفية نجد:

عذبك درب أهلنا يا وليد وش مجيبك   آني والله عليهم اللي قطعوا نصيبك

و:

أوميت لك برداني رد الضعن يا حادي   أسود عليهم قلبي مثل لون الهوادي

وهذا اللون هو الأكثر شيوعاً و الأغزر نظماً، والأعم غناءً، في مدينة الرقة لقربه من الحياة والمعاملات اليومية، ولبعده عن الشجون والأحزان التي تتسم بها الألوان الأخرى، بالإضافة إلى سهولة نظمه، إذ أنه ذو إيقاع موسيقيّ بسيط.

وإن لم تكن المرأة شاعراً، فهي جذوة النار التي تحرق قلوب الشعراء، فيلتهبون شعراً، يقول أحد الشعراء الشعبيين:

ليلو ثنايا الترف كاس الخمر ريجو   أسكر واضيع العقل كلما فتح زيجو

يلوح صيني بصدرو قرنفل خنانيجو   هـن اللدعــني أقــول أبيــات موليّــا

ومهما كان الحديث عن الشعر الشعبي الغنائي في "الرقة" عذباً ، يبقى وجوده في منبعه أعذب – أي بين حناجر المغنيين – وقد أثبتت الأغنية الرقية جدارتها من خلال الشهرة الإعلامية، مع أنها نقلت بصورة مشوهة، لا تليق بها، وربما نسبت إلى شعوب أخرى، لكن أصالتها حملتها أينما حطت وحظيت بجمهور عربيّ واسع.

الطي والنشر

الطي والنشر في علم البديع (هو أن يذكر متعدد، ثم يذكر ما لكل أفراده) كقول الشاعر:

ثلاثـــة تـــشرق الـــدنيا ببهجتهـــا   شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وتضفي هذه الميزة بريقاً رائعاً إلى الشعر وإيقاعاً موسيقياً فريداً هذا شأنه في الشعر الفصيح، كذلك شأنه في الشعر الفراتي.

حيث وجدنا له أثراً في ألوانه المتعددة.فنجده في العتابا اللون الأبرز فيه فسمة السواد في لون العينين ولون الشعر هي الأكثر إعجاباً في عيني الشاعر:

يعجبنـــي مـــن المـــدلل ســـوادين   عيونـــو والعلـــى متونـــو ســـوادين

علـــواه النـــايم بحـــضينو ســـوادين   يـــشف الـــلام مـــن ريـــجو دوى

لكنه يبدو أكثر ظهوراً في الموليَّا.فهذه الفتاة تطلب من أمها خمسين خادماً وتوزع اختصاصاتهم عشرة عشرة:

البنـــت تقـــول لأمهـــا يـــايوم أرد خمـــسين

عـــشرة لحـــوش العنـــب عـــشرة لحـــوش التـــين

عـــــشرة تـــــدق قهـــــوة عـــــشرة للبـــــساتين

عـــــشرة تـــــدق الكحـــــل لرمـــــوش عينَّـــــه

وقد يسبق النشر الطي فيذكر ما لكل من أفراد المتعدد ثم يذكر هو:

فللفاقة خلف كذلك للطرب وللخسارة أيضاً أما إذا فقد الحبيب فلا خلف له.

قلـــب مــــا يـــضم الولـــف أســـود مـــن الأوف

لاهـــوبماينكهــــب مــــستاحش الجــــوفِ

العـــــسر والكيــــف والخـــسران مخلــــوف

ألا المـــضيع غـــوي مــــا لــــو خلـــف شـــيَّه

كما ورد في لون النايل أيضاً:

حيث يرى شاعر النايل أن العمر يقتصر على أربعة أشياء فقط هي الليل والشباب والحب ومسامرة الأحباب:

العمر بس أربعة باقي بقى ما كان   ليل وشباب وهوى وملايع الخلان

ولقد تركت الهموم بعد رحيلها أثرين في قلبه أحدهما مراراً والآخر حسرةً على الأحبة:

هموم قلبي رحلت خلت هموم أثنين   وحدة مرار وصبر وحدة على الحلوين

ثم عنَّ عنتين بعد غياب القمر واحدة سببها مر الليالي والأخرى ذكر الأحبة:

بعـد مغيـب القمـر التـوى الـدلال وعـن عنتـين

وحـــدة لمـــر الليـــالي وحـــدة علـــى الحلـــوين

وقلبه مجروح ويتألم منذ السنة الفائتة وأن سبب آلامه هو أن مجموعة من الهموم والعذاب والكدر والأيام المنحوسة سكنت قلبه.

جـــرحٍ بقلبـــي ســـطا مـــن العـــام بيـــه حوســـه

هـــــم وعـــــذاب وكـــــدر وأيـــــام منحوســـــة

ويكرر شكواه من العنين في لون اللكاحي حيث عنَّ عنتين متداخلتين، الأولى للدنيا والثانية للشباب.

عنَّيت عنَّـه بعنَّـه عنّم علّي أحبـابي   أول عنَّـه للـدنيا والثانيـة لـشبابي

وثلاثة فقط هي التي لم يمسها السوء قط نجوم الثريا ونجم سهيل ومحبوبه.

بس ثلاثة بالدنيا ما جاسهن عذروبي الثريا ونجم سهيل والثالثة محبوبي

وكما كان الطي والنشر نادري الورود في الشعر الفصيح كذلك في الشعر الفراتي لكننا آثرنا الإشارة إليهما كون بعض الشعراء رصعوا أشعارهم بها لذلك استحسنا ذكرهما إشارة إلى السمات المتعددة التي اتصف بها الشعر الفراتي ذلك الشعر المترامي في صدور العامة كما ترامى العشب الأخضر على ضفاف الفرات.

الرقة في أغانيها

الرقةُ في اللغة: أرضٌ يعلوها الماءُ القليلُ ثم ينضب عنها.

ويقال الرقتان: الرقة والرافقة، والبصرتان للبصرة والكوفة لأن البصرة أقدم من الكوفة.

يقول عبيد الله ابن قيس الرقيات:

أقفــــرت الرقتـــــان فــــالقلس	**فهـــو كـــأن لـــم يكـــن بـــه أنـــسُ**
فالـــدير أقـــوى إلـــى البلـــيخ كمـــا	**أقـــوت محاريـــب أمـــةٍ درســـوا**

وقال آخر:

إذا مـــــا لرقتـــــان تجافيـــــاني	**فمـــا الـــدنيا علـــيَّ الرقتـــان**
سينـــصفني صـــديقٌ مـــن صـــديقٍ	**ويحملنـــي مكـــانٌ مـــن مكـــانِ**

والرقة موضع بالجزيرة السورية تترامى عليه الآن مدينة جميلة فضَّلها فيما مضى الأمويون على دمشق والعباسيون على بغداد ووصفها هارون الرشيد- الخليفة العباسي- بأنها إحدى جنان الدنيا الأربع.

أما عن الرقة في الشعر الشعبي- أو الأغنية الشعبية- فلقد نظر إليها الشاعر الشعبي فوجدها كاللؤلؤة بعد أن غسلها المطر ولها وميض يشبه وميض الجواهر وهي كالدرة تبتسم للقمر.

بانــــت الرقــــة تلالــــي	**تـــو مغـــسلة مـــن المطـــر**
جــــوهرة بالقـــاع تلـــصف	**د رة تبـــــــسم للقمـــــــر**
آه يـــا قـــلب التمـــاني	**والتمانـــــي مـــــن الفكـــــر**

كما كان لسور الرقة نصيبٌ من ذلك، فما أجمل الصبايا اللائي يتخطين قربه.

فزيت من منامي حسيت ذابل ريجي ريام الرقة يتخطن عند السور العتيج

ولم يتوقف الذكر على مدينة الرقة فحسب بل مرَّ الريف أيضاً. فهاهو ذا يصف معركته مع الضابط التركي، وكيف انتصر عليه في معركة مابين زعيج والرقة السمراء.

ثريَّا باش خيَّم عالشريعة يريد بلادنا غصب عن أهلنا

ما بين زعيج والرقة السمرا بان الفارس المنهم ومنّا

ذبحنا عسكرو واليوزباش وطواجيهم كورد الدودحنا

احنا أبطال والتاريخ يشهد احنا الزبيد الما نعطي وطنا

أهل شيمة وحشيمة واهل عفَّة واهل ناموس من جدنا لأهلنا

ولقد تمنى أن تخلوا كل البراري من أهلها عدا (المعيزيله) لأن أرضها مستوية ويمكن رؤية الحبيب عن بعد:

ريت البراري هجر حيشى المعيزيله عمن قاعتها سهلة وتشوف الزيلة

ولقد وردها صوت لاطلاق النار قادم من مرج ابن جنعان وترسل إلى الحبيب من يخبره بأنها أجبرت على الزواج من غيره.

حس الموازر جنّا من مرج ابن جنعانٍ

يا طروش قولوا لولفي ترى العفن ولاني

ولقد رحلوا إلى "أم العمد" وسيمشون يومين حتى يصلوا، ولم يتركوا له خبراً ان كانوا سيعودون أم لا. حتى يتمكن من اتخاذ قراره.

شالم على ام العمد مسيرهم يومين ما وسدوني خبر تاشوف دربي وين

ولقد أرسلت إلى الحبيب تخبره أنها وضعت ما بين النهرين وعليه ألاّ ينتظر فليس هناك أي أمل لعودتهما معاً.

حطونـــا بـــين فـــراتين بالدلحـــه قبـــال الـــضيجة

يـــامن يقـــول للغـــالي ماظـــل منهـــا نتيجـــة

ولقد جرت تلك الجميلة إلى ذلك الموضع المحاذي لنهر الفرات ولا تقوى رجلاه على اللحاق بها وقلبه المتيم يحثه على ذلك.

حجـــل الرجـــل مدقوقـــة طبـــت شـــرايع طـــاوي

والرجـــل مـــا تـــصلهم والقلـــب الأكـــشر هـــاوي

ولقد غمرت مياه النهر سبع قرى والقرية الثامنة هي "كديران" وعليها أن تنتظره في المزارع الجديدة.

ســـــبع قرايــــا نهــــدمن والثامنــــة كـــــديران

شـــقر الزلـــف تطـــوى بالمزرعـــة تتنـــاني

وهو يوصي من فارق حبيبه بأن لا يعلو تل جعبر خشية ان يموت وليس لديه نعش كي يحمله.

تـــل جعبـــر لا ترقـــا يلـــي مفـــارق عـــشيرك

اخـــاف تعـــنن وتمـــوت مـــامش نعـــش تـــا شـــيلك

وسيحط "رف الحمام" المهاجر في "هنيدة" والجميل لا يمكن الحصول عليه أما الآخر فهو ليس صيدٌ يمكن التباهي به.

رف الحمـــــام الغـــــرب مـــــوكرِ بهنيـــــده

الـــزين معـــد يحقـــل والعفـــن مهـــو صـــيده

أما شاعر الموليّا:

فإنه رأى الحبيب في منطقة سحل الخشب تلك المنطقة التي ترسو فيها الأخشاب القادمة مع مياه نهر الفرات وألقى عليه تحية المساء.

بـــسحل الخـــشب لاح لـــي الكـــواك ماســـاني

صـــف الفـــشك جـــس خمـــص حـــشاي ماســـاني

اعـــض كـــف النـــدم نوبـــه اقطعـــوا بـــسني

واجـــذب وســـايف علـــى الـــصارم ســـبب ليّـــه

كذلك كان للبادية الجنوبية نصيب أيضاً.

اركـــب لجيـــة الفحـــل وشـــدادها شـــامي

امـــشي مـــع الباديـــة وســـهيل جـــدامي

لمـــن قـــالولي لفـــى مـــردوع الوشـــامي

ضـــحاح خـــدو لعـــج بـــرق الهريفيّـــة

هذه هي الرقة وبعض مواطنها في أغانيها وهو ليس كل ما ورد ذكره على ألسنة الشعراء في الأغنية الشعبية. أولئك الذين كانوا قلباً نابضاً بحبها وعاشقاً يتحدث عن حبيبة أحبها وافترقا وهما بذروة العشق.فتحدث عنها برقةٍ تشبه النسيم وبحلم يشبه الأمل فبرع بتصويرها وأجاد برسمها لتبدو لنا حاملة بريق الأمنية وعبير الصدق.

المراجع

١- جمهرة اللغة ابن "دريد"
٢- الأماكن وما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة /الحازمي/
٣- معجم البلدان "ياقوت الحموي"
٤- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين "الخاليان"
٥- يبست يا عود لا تذبل "محمود الذخيرة" ديوان شعر مخطوط

عفاف الناقة وصبر الجمل

تتزاحم الصفات الحميدة فيما بينها، إذا ما ذكرت صفات النوق والجمال، فالجمل سفينة الصحراء، والناقة منبع الحنان، وصورة العفة، والجمل مضرب المثل بالصبر، أما عن حليب الناقة فهو معروف بحلاوته إلى جانب هذا وذاك وقف الشاعر الشعبي لينقل لنا عفاف الناقة بصورة الحبيب وصبر الجمل بصورته هو، فالميزة الطافية في سطح صفات الناقة هي العفاف، فكما أخذ الشاعر عيني الريم، وجيد الجداية، وكشح السابرية ليرسم بها صورة الحبيب، أخذ من الناقة سمة العفاف ليذكرها في مواقف متعددة من ألوان الشعر الفراتي الشعبي.

فنجده في الموليّا واصفا الحبيبة بأنها كالناقة التي ترعى أينما شاءت دون أن يجرؤ أحد على ردها لأن حرسها من أبناء عمومتها وهم مسلحون بالبنادق و(الشلف) ولا يستطيع من شاء أن يمر بطريقها مازال الشاعر يزمجر الحداء وبيده (المكنزية).

الخــــود ناقـــــة تهمـــل ترعـــى بكــل الطــــراف

جنبهــــا عيـــال الحمــــد بالمــــاطلي والـــــشلف

مـــــا يــــدحمج بــــالنزل كـــل جاهـــل قـــراف

مــــازال حليلـــــه يحـــــدي وبيـــــده مكنزيـــــة

وهي تمشي بخجل وعفة وحياء كما تمشي (خلوج المايا):

الريمـــة اللـــي مـــشت مـــشية خلـــوج المـــاي

راس الطويلــــــة والمحاديلهــــــا يـــــــومي

والله ماليـــــــن لــــو لان الـــــصفا بـــالمي

مـــا قـــول امـــر مـــن الله مبــدل النيّـــة

ونجدها في لون اللكاحي بكرة عفيفة اشتهرت بعفتها بين الناس، وهي ترفض الزواج بآخر لأنها بانتظار آمرها وراعيها:

بكـــرة عفـــا مـــا شـــالت والنـــاس لجـــت بيهـــا

مهـــي خيالـــة عفنـــين تتنـــى وعـــد راعيهـــا

وهي بكرة عفيفة لم يمسها إلاّ الندى، بينما قلب الشاعر يحترق حبا بالنار التي لا تقوى فيضانات شهر نيسان وأمطاره على إطفائها:

بكـــرة عفـــا مـــا شـــالت ألاّ النـــدى بـــذراها

نيـــران قلبـــي وجـــت نيـــسان مـــا طفاهـــا

ولم يكن العفاف الصفة الفريدة والوحيدة لدى الناقة التي استخدمها الشاعر بل يضاف إليها أنها منبع الحنان وهي تحزن لفقدها أبنائها:

يعقـــوب حزنـــه انقـــضى حزنـــي علـــيهم دوم

قلبـــي شـــبه العـــنس اهفـــت ولـــدها روم

بكيـــت بحرقـــة دمـــع لمـــن الجفـــن ورّم

وأنـــت طبيـــب تعـــرف مـــا جـــان بـــي شـــيّه

لقد حزن لفراق أحبابه حزنا شديداً، لكن حزنه لم ينته كما انتهى حزن يعقوب عليه السلام بلقاء ولده ، وأمسى قلبه كقلب الناقة التي فقدت وليدها وهي رؤوم. فلذلك بكى حتى تورمت عيناه دون علة أو شكاية، وحبيبه طبيب، ويعلم جيداً أنه قبل معرفته به لم يكن سقيماً.

أما عن صبر الجمل فقد وردت صوره متناثرة في الشعر الشعبي لكنها تجلت واضحة في أحد أبيات النايل المربع حيث يشكو الشاعر ألمه، وهو

صابر كصبر الجمل الذي تصطك أضراسه ويتكئ على جوانبه لشدة ثقل الهم الذي يحمله، كما أنه مجروح من تحت موطئ الحمل، وجرحه لم يشف ولا يشعر الجمّال بجرح جمله فلا الجرح يبرأ فيقيه الألم ولا الجمّال يدري بالجرح ليرمي حمله عن ظهر الجمل.

ظليـــت مثـــل الجمـــل أصـــرك علـــى نـــابي

مـــن ثقـــل حملـــي أنـــا اتـــوكى علـــى جنـــابي

الجـــرح جـــوى الجنـــب عمّـــل ولا طـــاب

لا الجـــرح يبـــرى ولا الجمّـــال يـــدري بـــي

ومع أن الشعراء شبهوا بعفة الناقة وصبر الجمل كثيراً في أبيات منفصلة، لم يمنع هذا من حشد هاتين الصفتين في بيت واحد، يقول من ذلك الشاعر متحدثاً عن حبيبته التي أخذت اسمها من الناقة التي تسير في أول قطيع الإبل (خلفه) وأغرقت وليدها بالحنان بين الورود والأغصان والتي لا يستطيع الوصول إليها، وأمسى لذلك يحمل همّاً ثقيلاً لا يقو على حمله الجمل الشرقي:

آنـــي قتلنـــي مـــن اســـمه بـــاول الـــذودِ

جنـــت علـــى حوارهـــا بفـــروع وورودِ

مـــا قـــدر علـــى وصـــولها لا آنـــي ولا نجـــودِ

همـــي رحـــل مـــا يـــشيله اهـــديب شـــرجية

فكان بذلك عفاف الناقة عباءة جميلة ألبسها الشاعر الفراتي لحبيبته وكان صبر الجمل حلة وقار لبسها هو فقدم لنا هذه الأشعار الرائعة التي تنقلنا إلى البيئة الفراتية امتداد البادية العربية حيث الفصاحة والنقاء لنقف بكل تقدير وإجلال أمامها لأنها أنجبت في يوم ما عظماءً وأبطالاً وفرساناً وشعراءَ تركوا لنا أثارهم الحميدة إلى يومنا هذا.

البليخ في الذاكرة الشعبية الرقية

يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان(١)

البليخُ: الخاء معجمة. اسم نهربالرقة يجتمع فيه الماء من عيون وأعظمُ تلك العيون عين يقال لها الدهبانية في أرض حران فيجرى نحو خمسة أميال ثم يسير إلى موضع قد بَنى عليه مَسلمة بن عبد الملك حصناً يكون أسفَله قدر جريب، وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً وأجرى ماءَ تلك العيون تحته فإذا خرج من تحت الحصن يسمى بَليخاً ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تَسقي بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت "الرَّقة" بميل. قال ابن دريد لاأحسب البليخ عربياً، ولكن يقال بَلخَ إذا تكبرَ. قال "أبو نُواس":

على شاطىء البليخ وساكنيه ... سلام مسلم لقي الحماما

وقال "عبيد الله بن قيس" الرقيات:

حَلَق من بني كنانَةُ حولي   بفلسطين يسرعون الركوبا
ذاك خير من البليخ ومن صو٠٠   ٠٠ت ذئاب علي يدعون ذيبا

وقد جمعها "الأخطل" وسماها بُلخاً. قال:

أقفَرَت البُلخ من غَيلان فالرحبُ   فالمحلَبيات فالخابور فالشعبُ

والبليخ ذلك الرافد الأشهر من بين روافد الفرات دخل الذاكرة الشعبية الرقيَّة فسمَّى بعض الرقيين أبناءهم باسم ذلك النهر الغاضب أحياناً والحامل للخير والبركة أحياناً أخرى والشجاع الذي يحطم كلَّ شيء، ولا يأبه بأي

(١) معجم البلدان: ياقوت الحموي .

مخلوق علّهم يتسمون ببعض صفاته تلك كما وأنه يمُّر في أراضٍ خصبة تدر على أهلها خيرات تتفوق على وادي الفرات ذاته أحياناً .

البليخ في الحكايا الشعبية:

يفيض البليخ في مطلع الخريف ويستمر جريانه حتى نهاية الربيع بينما يجف في القيظ مما يدفع بسكان المنطقة إلى إقامة سدود ترابية أحياناً وأحياناً أخرى.

توضع فيه نباتات شوكية.

تحفظ المياه لمدة قصيرة وتارة أخرى ترفع مستوى الماء مما يجعل بعض الأرضي قليلة الارتفاع تستفيد من مائه.

تناط مهمة جمع النباتات الشوكية بالنساء وعلى الغالب الصبايا.

إذ تجتمع عشرات منهن وربما المئات أحياناً. و يسمين بذلك سكارات البليخ أي اللائي يبنين سداً من النباتات الشوكية على البليخ .

و من المعروف عن سكارات البليخ أنهن إن صادف ومرَّ رجل قرب المكان الذي يعملن به فإنهن يقمن بتعريته مما يدفع برجال تلك المنطقة إلى الابتعاد عن المنطقة التي يتواجدن بها وإن صادف ومرَّ أحد قربهن خطأً فإنه يصبح قصه القصص فمن ذلك يحاذر كل الحذر من يمر في تلك المناطق.

البليخ في المثل الشعبي:

سوس البليخ :

خصوبة أرض البليخ جعلت من أرضه مهداً لانتشار نبات السوس تلك النبته المشهورة بعروقها والتي يستخرج منها شراب السوس، ويمتاز سوس البليخ بكثرة تشابكه مما جعل ذلك مضرباً للمثل في كثرة الصلات، ولاسيما صلة القربة.

البليخ في الأغنية الشعبية:

للبليخ واد يدعى في المفردة المتداولة (هور) وحمل ذلك الهور بين طياته أصنافاً جميلة من الورود والزهور وقد ذكر ذلك في لون العتابا حيث

يشبه الشاعر اللائي رآهن بطيور الأوز القاطنة هور البليخ الممتد مابين قرية جروى ونهر الفرات.

فـشك درب النمـل فنجـال وزهـور　　خديـدو مـن عـذي الـورد والزهـور

يـــدادن يـــا خنافرمثـــل وز هـــور　　البلـــيخ البـــين جـــروى والفـــرا

لكن البليخ لا يلبث أن يجف وتضحي أراضيه هشة تذروها الرياح وتنقلها من مكان إلى آخر فيتألم الشاعر لذلك، ويطلب من حبيبته ترك ذلك الموضع خشية أن تدخل تلك الأتربة في عيونها.

ردن علـــى ديـــر تكـــن عـــج البلـــيخ أعمـــاكن

يـــا معطـــرات الكذلـــه عقلـــي شـــرد بهـــواكن

بين هذه وتلك ترتسم إسقاطات رائعة لذلك المثلث الجميل الفرات و"الرقة" والبليخ الذي يحمل بين حناياه القطا والأوز والحرمل والقندريس والموليًّا.

والنايل والربابة والدفوف والهيل والمسك والرقي ذلك الفراتي الذي أحب مدينة اسمها "الرقة" فضلها الأمويون على"دمشق" وفضلها بنو العباس على "بغداد".

المسك

المسك ذلك العطر الأكثر زكاءً والأكثر تردداً على ألسنة العامة من بين أصناف الطيب.

قال عنه اللغويون: المسك معروف إلا أنه ليس بعربي محض والمسك ضرب من الطيب مذكر أنثه بعضهم على أنه جمع واحدته مسكة، والمسك من الطيب فارسيٌّ معرّب، وكانت العرب تسميه المشموم، ومسك البرّ نبت أطيب من الخزامى، ونباتها نبات القفعاء ولها زهرة مثل زهرة المرو.

ورد ذكره في القرآن الكريم

يقول تعالى ﴿**ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾(*) المطففين (٢٦)

كما ورد ذكره في الحديث الشريف في مواقع عدة يقول (ص):

دخلت الجنة، فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فإذا مسك أذفر.

قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي اعطاكه الله .

وقال امرؤ القيس في معلقته:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

وقال آخر:

ولا أعجب العجبين أن كلامه لخلاله مسك يروح و رامكُ

والمسك ذلك الطيب الشذي لم يكن بخافٍ عن الشاعر الشعبي الفراتي، سيما وأنه عطر تقليدي في منطقة وادي الفرات، وليس على الشاعر الشعبي

(*) القرآن الكريم لسان العربي ابن منظور.

فحسب، بل على الذاكرة الشعبية الفراتية بأسرها حيث يقال في المثل الشعبي (أطيب من المسك).

ولا يكاد يذكر الحب والجمال إلا ويقترن بهما المسك. وكانت صورته الأبهى في عيني الشاعر الفراتي كونه المصور الأبرع والرسام الأدق .

فنجده في العتابا يترامى خلف الغبار التي أثارتها حوافر الخيل وخفاف الإبل، حاملا رائحة الأحبة.

ثريــا تنـــوح والـــدنيا مـــسكبه	**مطـــر وجعـــود خلانـــي مـــسكبه**
عجـاج الـضعن عنبـر والمـسك بـه	**أخيـــر مـــن القرايـــا المعطنـــى**

أما شاعر الموليّا فإنه يفقد صوابه حين يجد الحبيب قريباً منه ورائحة المسك الممزوجة مع الهال تفوح منه:

يختال عقلي وأشوف الزين بالحوشي	**أمـدهنِ بالمـسك بالهيـل مرشـوش**
ما شفتها يا قلب الصدر ..... منقوش	**كتبـة وزيـر العجـم بطـراف طلحيّـة**

ولم يتعطر الحبيب بالمسك فقط بل أضاف إليه (الخضيرة) والعنبر وبحث عن شبيه له بين الغزلان ولم يجد ولازال ينتظر كالصياد على مورد الماء:

جتنـي تلملـم زمانـــي لايحـه الـشنبر	**ريح الخضيرة ومسك بصدرها وعنبر**
دورت شـبهك يـا حلـوة وبغـزال البـرّ	**آنـي هتـيم الفـلا قـانوص عالميّــه**

أما شاعر النايل فإنه يسأل النهر ويؤكد عليه ويطلب منه أن يصدقه القول إن كانت الغزلان التي يبحث عنها قد وردت إليه أم لا وهو متأكد أنه وردها فلقد شم رائحة المسك في الماء.

اصدق يا جاري النهر اليوم ماجنك	**بميك شمينا المسك و الريام وردنك**

أما في التشاطيف فإن الحسناوات يحملن رائحة المسك بين ضفائرهن:

كـل الهـلا بالحـدث لـو جـن كلهـن	**ريحـة مـسك وخـضيرة بطـي قـذلهن**
مـا قلـت لـك يـا يمّـه اخـذيلي مـنهن	**بلكـي ربـك يغفرلـك صـومة رمـضان**

هذا بعض ما قاله الشاعر الفراتي عن المسك وليس كل ما قاله، ولا ختام للمسك إلا المسك، تلك الشذرات التي تترامى وتفوح عطراً أينما حلت ورست، نتغنى بها ونشدو بكلمات شاعر فراتي مزجها والفرات أغنية، عشعشت في ذاكرتنا منذ الطفولة والصبا فبدت لنا كشقائق النعمان التي أمالتها نسمة صباحية عندما كللها الندى وأيقظتها شمس الصبح على عجل.

الهباري

الهبرية في اللغة: ما طال من زهب القطن وما تناثر من القصب والبردي وما طار من الريش وما يتعلق بأسفل الشعر مثل النخالة ويعرف بقشرة الرأس.

تستخدم هذه المفردة في الريف الفراتي عموماً والرقي خصوصاً كمرادفة لمفردة هباري، والهباري كما هو معروف: أحد أشهر الأزياء النسوية الرقية و الذي يستخدم كعصابة على الرأس .

تنسب الهباري إلى العراق فيقال هباري عراقية، وتنسب إلى بعض مدنه فيقال هباري موصليّة، كما ينسب إلى مدينة حلب السورية فيقال هباري حلبية.

تستخدم الرقيّات من الهباري أنواعاً عدة وبألوان وأسماء مختلفة (رقاب الحمام، نثر الحنة، سنون الجرجر، الوارد، ورد الموصل، البرقان)، أما ألوانها فمنها الأحمر ومنها الأزرق، ومنها الملون مابين الأسود والأحمر، ومابين الأسود والأبيض ومنها ذو لون ثلاثي يجمع الأحمر والأصفر والأبيض (خد أسعد) والأبيض و الأسود والأحمر (الوارد).

يمكن تعريف الهباري بأنها قطعة قماشية حريرية، على شكل مربع قطره متران يمتاز بنعومة الملمس فيقال من ذلك (أنعم من الهباري) تحوله المرأة الرقية إلى مثلثين متطابقين وتضعه على رأسها ثم تقوم بطيه وشده حتى تتمكن من رسم العصابة بالشكل المتعارف عليه بين النساء، ولا تجيد ذلك الا الماهرة منهن.

لم تغب تلك الصورة الجميلة للهباري عن عين الشاعر الفراتي سيّما وأنها ترسم كعصابة للرأس.

فلقد احتلت الصدارة في وصف شاعر العتابا حيث يصف الحبيب الذي رسم الهباري بعناية وذهب لجلب الماء من المورد.

شـطف جـوز الهبـاري وراح ورّاد منـسف جعـوده علـى المتنـين ورّاد
يـا ريـت اليحـرم الرايـد مـن الـرّاد يمـوت ولا يـصير لـوه ضـنى

وهي معطرة في وصف شاعر الموليّا واللائي يرتدينها يبدون كالغزلان يرتعن في أرض (الحنو).

إمعطرات الهباري بأرض الحنو رامن ضمر عطاشى اخملهن ولف رامن
بالله يصدرها لـولا حـذف الرمان عطشان منو يا باري يا برد ميّـه

ويراها ملبوسةً فوق ثوب (الجز):

رحنـا نتـصيد قطـا نـسمع نغيط الـوز يـا لابسات الهباري فوق ثوب الجز
ريت الحرمني حبيبي يصير نومو فز يمـوت جنـب وجنـب والكفـن عاريّـه

وهي تشبه خدود الحبيب في وصف الشاعر اللكاحي:

لاقعـد علـى شـاطي المـي وأتعجـب بالجـاري
خـدّ علـى غـاليتي انعـم مـن الهبـاري

ولم يرتد حبيبه الهباري العراقية فحسب بل أنه أرفق معها (زبون) (لب الجوخ) ذلك الحبيب الذي بيده قرار الزواج فيتوسل إليه ليوافق على ذلك:

يـابو زبـين لـب الجـوخ يـابو هبـاري عراقـي
الحكـم عايـد ليـدك دخيـل بـيض وراقـي

أما شاعر النايل فيجد نفسه في مصيبة عندما يرى حبيبه وقد لثم وجهه بالهباري حيث لاقاه صدفةَ:

الله بلانـي حبيبـي دوم زعلانـي لـف الهبـاري لـثم لمـن تلقـاني

هذه هي صورة الهباري فراتيّاً ورقيّاً، رقيقة ناعمة كملمسها تحمل بين طيّاتها نسائم الفرات وأسرار جماله وروعة متجددة ومتألقة كشقائق النعمان في عام تغنى به الفراتيون وشدوا بربيعه الزاهي وبألوان وروده التي تناثر شذاها وتمرمغ على خدٍّ جميل كساه الحسن زهواً، ورواه الحب عشقاً، وغناه شادٍ على سفح ربوة.

الحطابات

الحطب في اللغة: ما أعدّ من الشجر شبوباً للنار، حطب يحطب كضرب يضرب وحطباً المخفف مصدرُ وإذا ثقل فهو اسم: جمعه كاحتطب احتطاباً وحطب فلاناً يحطبه واحتطب له: جمعه له واتاه به، و حطبني فلانُ اذ أتاك بالحطب قال ذو الرمة:

وهـل أحطـبن القـوم وهـي عريـة أصـول آلاء فـي الثـرى عمـد جعـد

وقال الراعي:

هـلا سـألت هـداك الله مـا حـسبي اذا رعـائي راحـت قبـل حطـابي

ورد ذكر الحطب في القرآن الكريم يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وامرأته حمالة الحطب**﴾(*)

والحطب وقود الشتاء، ذلك الذي يشبه فاكهته، في تلك البيئة ذات الشتاءات القاسية ببردها، فطالما جمعتنا "التعاليل" معه، بأحاديث وحكايات وأغانٍ و أحاجٍ، كثيراً ما حيرتنا، والقهوة المرة، وكان حينها الصديق الأقرب والمحب الأوفى.

لم يكن ذلك سبباً لصلة الشاعر الفراتي فيه، ورابطة للشاعر الشعبي الرقي معه، وإنما جمعه وإياه يد الحبيب التي جمعته.

فقد كانت تحطب في وادي "الزور" ، ذلك الوادي الحطيب، ثم يصفها لنا كيف جمعت الحطب، وكيف حملته، وكيف أمسى حينما خطبت لغيره:

بـالزور حطابـه بـالزور حطابـه حاشت حطبهـا وكـوت قلبـي بعطابـه

(*) القرآن الكريم تاج العروس من جواهر القاموس.

اليـوم الاكـشر يـايوم لفـوج خطابـه   لا قـط راسـي واخمـش الوجـه بيديـه

وكان هذا أروع ما قيل في لون الموليّا الرقية.

أما شاعر النايل فإنه رآهن يجمعن الحطب، وكن قد أطلقن ضفائرهن وكان بوده أن يساعدهن على حمل الحطب، لكنه كان يخشى لومة اللائم.

شـالن حـزم الحطـب دلـن جـدايلهن   ولـولا حكايـا الربـع لامـر اشـيّلهن

ورآهن حين كنّ يحملن الحطب، وكانت أسنانهن ذات وميض تشبه "المجيديات".

وعندما فجعه البين بفراق الحبيبة تمنى ألاّ يسمع جامعات الحطب وهن يغنين بينما تدفن جدائل حبيبته تحت الثرى.

ريت العذيمي لاهب ولا غنت حطابـه   بالحيف زلف الغالي ويصير جوّا الطابة

أما في "القصيد" "الشعر النبطي" فتطلب الشاعرة أن يوقدوا النار وتتوسل إليهم ألاّ يحرقوا تلك الشجيرة و التي تحمل اسم الحبيب:

حطـم حطـب علـى النـار عـودان   سـمي التـرف لا توجدونـه

ومن المعروف أن الحطب في مدينة الرقة، يجمع من "الغرب" و"الطرفاء" التي قال فيها الشاعر:

واصـعدت الحطـاب حـين تقـاربوا   علـى خـشب الطرفـاء فـوق العـواقر

و"الشيح" و"الرمث" و"الصّر" و "الروثه" و "العجوة ".

تلك هي "الحطابة" التي جمعت الحطب ليقاوم برد الشتاء، وأعجبت الشاعر الشعبي الرقي فقدم لنا تلك الصورة التي رحلت مع الذاكرة وأمست ذكرى، تشب لنا أملاً افتقدناه، وحكاية جمعتنا ذات مساء وفرقتنا ونحن نشدو بها.

العذول

العذول واللائم والعريضي والنمام، مترادفات يستخدمها الرقيون كغيرهم من سكان وادي الفرات وكما هي بالعربية الفصحى بمعنى واحد.

وهي مفردات يخص بها ذلك الذي يشغل المحبين، ويتدخل بأخبارهم، يضيف إليها وينقص منها، باحثاً عن سبيلٍ لهدم أواصر المحبة بينهم، ويكون دافعه في ذلك يعود لحبه لأحد الطرفين دون أن يبادله ذلك. لكنّ هذا لا يحتم أن تكون له مصلحة في ذلك.

إذ تميل هذه المفردة إلى الصفة التي تلازم موصوفها فتجده يهتم بها دون دافع، ويذكر أن أحد المترجمين العرب كان يترجم نصاً من العربية إلى الفرنسية بمشاركة أحد المترجمين الفرنسيين وعندما نقل العربي إلى الفرنسي مفردة العذول استغربها ولم يفهم معناها إذ لا مرادف لها بالفرنسية.

فسأل الفرنسي أهو أخوها أم أبوها أم قريبها:

فقال له العربي لا هذا ولا ذاك

فقال الفرنسي باستغراب ما هو إذاً ؟

شغل العذول الشاعر الفراتي وأتعبه، فها هو ذا يشكو أنينه الذي زاد على أنين الخنساء الشاعرة العربية المعروفة في لون الأبوذية ويتمنى أن يكون بيته بدون "عتبة"

ويخبرنا بأنه لا يعتب على حبيبه، بل يعتب على ذلك الزمن الذي غدر به.

ربع وني الخنسا ما لعت به   وعسى بيت العريضي ماله عتبه

أنا ويّ وليفي مالي عتبه   عتابي ويه الزمان الخان بيّه

أما في لون الموليّا فإننا لم نجد أثراً للعذول فيه حيث اعتمد شاعر الموليّا رأي شاعر لون النايل الذي يقول: أن رجليه تأخذه عنوة إلى الحبيب ولا يخشى لومه لائم أو عذول:

غصبن علينا مشت للزين رجلينا نعطي العريضي قفا لمن يحاجينا

وعلى نقيض ذلك الذي أولى العذول اهتماماً وشكل لديه هاجساً وأصبح يتراءى له في كل شيء، حتى أنه يدخل بين اللحاء والقشر. ويرصد حركاته ويسجلها في أوراق خاصة.

بين العصا والقشر خش العريضي وفات بيدو دواية وقلم يكمش علي زلات

أما شاعر السويحلي فإنه يناقض ذلك إذ أنه يرى في العذول خيراً لم يكتشفه أحد قط، فهو دائماً يهذي باسم الحبيب، وهي ترغب بسماع ذلك وإن كان ذماً فلذلك أرسلت إليه تطلب لقاءه وتسمح له بالجلوس معها.

خل يقعد وياي جيبولي النمام بس طاري هواي ذم لو مدح مقبول

أما شاعر اللكاحي فإنه يؤمن بالقضاء والقدر وليس لديه أي اعتراض على حكم الخالق وإن كان قاسياً عليه لكنه يعزي ما أصابه إلى العذول، فلولاه لبقيت سماءه خالية من الغيوم.

أمر من الله مقدر مقبول لونو سايه لوما العريضي الخاين ظلت صحو دنيايا

هذا هو العذول بصورته التي أرعبت العشاق في جانب منها، واستغربها آخرون في جانب آخر، واستقطبنا لنتحدث عنها، والشاعر الفراتي الذي لا يرى للائم فائدة في تدخله بما لا يعنيه، فكل شيء مقدر وكل شيء على ما يرام فلا زالت النجوم تضيء أمام داره.

النجمة هاذي تاضي بوجه البيت قل للعريضي بسواد وجهه شفاد

كما هو أمام بيوت الآخرين سيما وأنه في زمننا هذا الذي يصفه البعض ببعد الحداثة وأصبح كل منا يستطيع معرفة آخر ما يدور على الساحة العالمية من خلال سبل الاتصال الحديثة.

الرحيل

لعل الرحيل والأطلال أشجان طالما كانت موضوعاً لقصائد شعراء العربية:

لمـا انــاخو قبيـل الـصبح عيـسهم   وحملوهـا وسـارت بالـدجى الإبـل

وعندما نستعرض ملامح الحزن والسوداوية في الشعر الشعبي الرقي نجد للرحيل صورة ذات إطار أسود من حيث أن عرب الفرات منهم البدو ومنهم البدو نصف الرحل قبل أن تدخل المدنية التامة بعض المدن والمناطق كما هو الحال في مدينة الرقة التي بدأت المدنية تدخلها مع بداية القرن العشرين، كما يذكر مؤرخوها، ولا شك أن الرحيل ظاهرة تتكرر في المجتمعات البدوية وشبه البدوية حتى شغلت حيزاً كبيراً في مختلف ألوان الشعر الشعبي.

فنجد شاعر العتابا شعربأنه قد طعن برمح ومزج زاده بسم الأفاعي لرحيل حبيبته:

رمـح يـوم شـال الـضعن بكـلاي   دافـو لـي مـن ريـاج الـرقط بكـلاي

بـالله ياهـا لمجـول الـداير ابـك لـي   حنينـك هـيم القلبـوه مـن صفـا

أما شاعر الموليا فإن قلبه تكوى بالنار لرحيل الحبيب:

قلبـي ملكـع مليلـة نـار بـالجوف   لمـن رحلـتم علـى الزمـال مـردوف

عيني تلاشي السما والجفن مطروف   بكيـت لمـن صـفا راسـي مـن الميـه

وفي جانب آخر نجد قلبه المحترق كالفحم الذي تذريه الرياح:

طير الـسعد معتلـي مـن فـوق خلانـي   شـالم علـى الـديرة القفـرا وخلـوني

هم السقوني الـصبر مع كـاس خلانـي   خلـم دليلــي فحـم تذريــه غريبــه

ومن الجدير بالذكر أن الرحيل لم يقصد به نقل المنازل من مكان إلى آخر فحسب بل قصد به أيضاً – فراق الموت – زواج الحبيب بآخر.

فنجد في النايل طلباً بهدم منزل الحبيب بعد رحيله لأنه يحزن قلبه.

ما دام همّ رحلم عليش الدار خلوها شلي بغثاث القلب يا ناس هدوها

ولكن أينما رست رحاله فإن الشاعر غير مبال بذلك فستلحق به قدماه أينما حل.

رقيت راس العلو والوكت صار غروب ملزوم مني السهر تنصابح المحبوب

وعندما وجد الحبيب بأن الرحيل لابدّ آت فقد أوصى داره بالجيران:

الزين لمن رحل وصى الدار بالجيران ينارهم بالقلب تسعر بلا دخان

أما في لون السويحلي

فإن الشاعر سيبحث عن أحبابه الذين رحلوا في جميع منازل العرب وسيتجول بينهم كالمغربي:

مثل المغربي لا دوج بالعربان بلكي يا ربي تجمع شملنا اثنين

بينما بات قلب شاعر "اللكاحي" أسود بلون الهوادي:

اوميت لك برداني رد الضعن يا حادي اسود عليهم قلبي مثل لون الهوادي

ومع أن الرحيل كان حنظلاً في حلوق الشعراء إلا أن الشعر المتدفق من أفئدتهم المحترقة كان لنا عبيراً وشذىً يغمرنا كلما سمعنا هذه الأبيات سواءً على ألسنة المتحدثين عنه أو مغنيه.

ملامح الوجه

لعل الجمال ركن أساس من أركان سعادة الحياة، التي نعيشها، فلقد فطر الإنسان على حب الشيء الجميل، فلذلك يسعى دائماً إلى تحسين ما يحيط به، وكانت العرب تسمي الوجه "الأحسن" فإذا ما أصيب العربي بوجهه، فإنه يقول "أصبت بأحسني" وقد قرن حسن الخلق بحسن الوجه يقول صلى الله عليه وسلم:

"سلوا المعروف عند حسان الوجوه"

من هذا لم تغب هذه المحبة عن قلب الشاعر الشعبي الفراتي، فإلى جانب جمال العينين ومشق القامة، كان للوجه نصيبه الأكبر في الوصف، وقد كثر وصف الوجه الأسمر عن غيره من ألوان الوجوه، كون أبناء الفرات ذوي بشرة سمراء، اكتسبوها من البيئة التي عاشوا فيها، إلا أن هذا لا ينفي ورود ذكر للوجه الأبيض أو الأشقر، وتلك الخدود التي تشبه لون الورد، وتارة أخرى بلون الذهب، فها هو في لون الموليّا، يرى القمر بوجه حبيبه كلما أقبل، ويصف لنا دموعه الغزيرة على فراقه. على نقيض أولئك الذين شحوا عليه بالدموع والتي كادت تملأ الوديان.

أنت بروحي العزيزة والنبي هل هل　　　كلما تخطم المسا نقرا الشهر هل هل

شحيح دمع الخلق دمعي عليكم هل　　　فيضٍ طماه العلو سكان بريّه

أما جبينه فيشع نوراً بلون البدر/ فلذلك سكبت عيناه دمعاً على فراقه، ذلك الذي تفوح رائحة الريحان من بين ضفائره.

ياضي جبينو يخدو تقول بدرٍ هل　　　دمعي على خلتي من غير سايه هل

أسايلك بالنبي مانت ولد منهل　　　محشي جعوده من الريحان ممليّه

ثم نجده في جانب آخر أسمراً لا يميل إلى لون القهوة، بل يميل إلى لون العسل، عندما يكون بشمعه، أما قامته فإنها تشبه غصن البان الذي يحركه نسيم الصباح القادم من الغرب إبّان شروق الشمس.

أسمر سمارك حلو ما هو بلون البن   لكن بلون العسل ويّ الشمع لوبان

طول المدلل حلو ويميل غصن البان   ويلا عبو من هبوب الفجر غربيّه

أما في لون النايل فإنه يكثر من وصفه للون الأسمر، ويرفقه بوصف الرضاب، الذي يشبه طعمه طعم العسل، فهاهو يخاطبه: أيها الأسمر الجميل: يا من امتلكت رضاباً، كالعسل الصافي، لقد أحرقت قلبي حباً حتى انحنى ضلعي، من جراء ذلك ولم أقل لك كفى حباً.

أسمر سمارك حلو ريجك عسل   أنت الحنيت الضلع ما قلت لك كافي

ولأجله سار الدرب المخيف دون أن يهاب أحداً:

أسمر سمارك حلو شفة عسل ريجك   سيّر علينا يا غالي الدرب لا يعيجك

ولم يكن أسمراً وجميلاً فحسب بل كان يمتلك خالاً ترامى على خده:

أسمر سمارك حلو شامات بخدودك   وآني رماني الهوى داخل على جدودك

وكانت له قامة ممشوقة إضافة لذلك ذلك الذي حافظت على حبه متناسية لوم أهلها وأقاربها:

اسمر سمارك حلو يا مردرد اركانك   حملت حجي اهلي كلّه على شانك

ولقد كان طويلاً يشبه طوله / مرادي السفن/ وخدوده بيضاء تشبه ورد / المدّيد/ ذلك الورد المترامي على ضفاف البليخ:

طولك مرادي السفن والخد ورد مدّيد   جيبم زهاب الحلو من تاجر ابن مهيد

ومع أن غزل الشاعر الفراتي في هذا الجانب كان صريحاً إلى حدٍّ ما، إلا أنه لم يكن يبتغي التصريح بقدر ما كان يرمز إلى النقاء وعذوبة الحوار مع الآخر، ذلك الذي أحبه وعشقه وتراءت له كل مظاهر الحسن فيه، وتمنّى أن يكون شريكه الآخر في يومٍ ما.

العنين

العنين: تلك الدرجة المتقدمة من الأنين، والتي يرى البولوجيون بأنها تخفف الألم مفردةَ تستخدم في الريف الرقي بمعنين :

الأول: حالة متقدمة من الأنين

الثاني: عنّ بمعنى خطر والتي اوردها ابن زيدون بقوله:

لا سكّن الله قلباً عنّ ذكركم   ولم يطر بجناح الشوق خفّاقا

وهو صورة من صور الألم والحزن والشجن، الذي عرف به الشعر الفراتي بشكل عام والرقي بشكل خاص، وهو إسقاط لتلك البيئة البدوية ذات الطبيعة القاسية والشاقة بآن واحد، لذلك نجد أنّ أغلب ألوان الشعر الشعبي تورّده، وبعنايةٍ فائقة، كيف لا وهو يشارك روح الشاعر شجنها .

فنجده في لون "القصيد" يقول: أنيت ليلة البارحة بشدة، وكررت أنيني، حتى أوشك رأسي على أن يشيب لكثرة همي وشجوني:

البارحة عنيت عناتٍ كثار   من زود همي راح راسي يشيبِ

وفي لون الموليّا:

يأنّ أنيناً يشبه أنين الذي لسعته أفعى، لأنه أصيب بداء الحب ويسأل أولئك الذين قرأوا الكتب علّهم يجدون له دواءً في ذلك الزمن الذي اقتصرت المعرفة فيه عليهم فقط.

عنيت ياأهل الهوى عنة لديغ الداب   ما شفت يا صاحبي مثلي طعين نصاب

أسايل أهل العلم الشيخ والكتاب   بلجي بحرف الورق يلقى سبب ليّه

ولقد أنّ أنيناً متتالياً حيث أحب الجميلات وهنّ صغيرات قبل أن يعرفن معنى الحب، ولم يقلن له مطلقاً اذهب عنّا، بل رحبن به.

عنّيت ياهل الهوى عنّه بثر عنّه ومولع بحبهن من قبل ياعنّ
ما يوم قالن ملاح البيض ول عنّا ألا بأهلاً وسهلاً بنور عينيّه

ثم رافق الألم أنينه، كالرضيع الذي يبكي ولا توجد له أم قريبة منه في الحي الذي هو فيه، والذي يعرف الحب يتألم لحاله، أما الذي لا يعرفه فلا يعني له رأيه شيئاً:

عنيت ياهل الهوى وبعنتي ما لوم مثل الرضيع البكى وبها النزل ما لوم
اللي يعرف الهوى يبكي لحالي دوم والمايعرف الهوى مالو شغل بيّه

أما في لون اللكاحي:

فلقد أن أنيناً متداخلاً ثم خطر له أحبابه في ذكراه وكان أول ما خطر له الدنيا وما فيها ثم شبابه الذي افتقده:

عنيت عنه بعنه عنم علي أحبابي أول عنه للدنيا ثاني عنه لشبابي

ثم يقول أنه سيئن كما يئن المكسور ذلك الذي يدارى من قبل أهله من ذلك الجميل الذي أحبه والذي يشبه الغزال بحسنه وكحل عينيه.

لاعن عنين المكسور اللي أهلو يدارونه شوقي غزال مضمر ومكحلات جفونه

ويكرر ذلك الأنين ويطلب من المداوي أن يرخي الجبيره.

لاعن عنين المكسور ارخم عليه شدادوه شوقي غزال مجفل هنيالو من صادوه

أما في لون النايل فإنه يبالغ بوقع أنينه حيث يصفه بشدة عالية حتى أنه هدم الجبل:

عنيت وبعنتي جبل سنجار هديتو أهل القبور قعدم كل من بنى بيتو

كما وأنه أيقض بأنينه جار جاره.

عنيـت وبعنتـي أقعـدت جـار الجـار   والعنـة الثانيـة هـدت جبـل سـنجار

أما عندما تخطر ذكراهم في القلب فإنها تشبه الخنجر الحاد ويتساءل إن كانوا سيعودون هذه السنة أم سيقضون فصل الشتاء في منطقة العمق.

لمن تعنون شلفى بضامري تحطون   مدري تجون السنة ولاّ العمق تشتون

أما في لون السويحلي فإنه ينفي أن يكون للأنين فائدة تخفف الألم عن المريض:

مـاون ونينـي فـرخ القطـا بـالقيظ   كثـر العنـين مـاينفع المرضـان

هذا هو العنين بألمه و شجاه وصورته التي أطرها الحب عشقاً ومقامه الذي أشجى روح عاشق فعزف لنا لحناً طالما أطربنا بموسيقاه وغنى لنا شعراً ترقرق في قلبٍ غالبه الهوى.

المكتوب

الكتابة ألم الروح وشجنها أحياناً، لم تقتصر على الكتاب والأدباء والمؤلفين فقط، كما هو عليه الحال في الغناء، ذلك الذي لم يؤدَّ من المغنين فحسب، فربّ راعٍ حمل عصاه وغنى بصوتٍ لم يمتلكه أبرع المغنين.

الجواب والمكتوب والمرسال مفردات ثلاث تأتي بمعنى واحد، وهو الرسالة، حيث تعرف بمصر باسم الجواب، وفي بلاد الشام والعراق باسمي المرسال والمكتوب، لكن كلمة مكتوب تقتصر على الرسالة المكتوبة كتابة فقط، وقد عرف الأدب العربي في تاريخه رسائل عدة، كرسائل إخوان الصفا ورسالة الصحابة، التي كتبها ابن المقفع للخليفة العباسي المنصور، ورسالة الغفران التي كتبها أبو العلاء المعري.

والرسالة شكل من أشكال الأدب الشعبي، يجيده كلّ من يجيد القراءة والكتابة، وقد ظهرت الحاجة إليه بعد أن تطورت وسائل النقل، وقبل أن تصل الحضارة إلى ما هي عليه الآن، لنجد سبل اتصال مباشر عن طريق الهاتف وفيما بعد عن طريق سبل الاتصال الالكتروني.

حيث أبعدت وسائل النقل وسبل العيش ما بين الأحبة والأقارب فجاءت الرسالة أو المكتوب كصورة من صور التواصل، التي لم تغب عن ذهن الشاعر الفراتي بوقعها وألمها وأفراحها وأحزانها ، وظهرت في أغلب الألوان الشعرية الفراتية.

فنجده في العتابا اللون الأكثر شجىً، حيث يستخلص العتاب من العتاب ليرسله للأحبة، وإذا ما توفر الحبر له سيجعل من دموعه حبراً، وسيستخدم الطير ساعياً للبريد، لأن الطير سريع بجلب الإجابة لكن الطير لا يجيد ذلك.

عتابا من عتابا لارسللهم — **حبر من دمع عيني لارسل لهم**
يلون الطير يفهم لارسللهم — **عمن الطير سريع برد الجواب**

ويكثر الحديث عن المكتوب في لون الموليّا، اللون الأكثر شهرةً، حيث يذكر الشاعر شكل رسالته وظرفها، وإلى من سيوجهها، إلى ذلك الجميل الذي اسدل ضفائره الصفراء على متنه، وإلى أولئك الذين نسوه وقلبه مكوّى بالهوى، ودموعه تذرف حتى أمست أشبه بغدير الماء.

أرسل سلامي بورق وبظرف مضمونٍ — **لابو جعودٍ شقرٍ لاحن عالمتونٍ**
قلبي كواه الهوى وانتم سليتوني — **والعين تذرف دمع غدران بريّة**

ويبدأ رسالته مرةً أخرى بتحيته التي يوجهها إلى / الملاّ / معلم القراءة والكتابة والعالم بأمور الناس، ليصف حبيبته التي رفضوا تزويجها منه.

أول ما خط القلم سلام للملاّ — **ما هي طويلة بحرومنا سبه ملاّ**
دورت نزل الحمد لمن عطلت منّا — **ما لقى تواصيفها بالشربن الميّه**

ولعينيها نصيب في بداية الرسالة، كما ويخبرها بأن قلبه وفكره يذكرانها دائماً فيما تذرف عيناه الدموع باستمرار.

أول ما خط القلم سلام لعيونج — **وان جاد ليلى صدقت لاصير مجنونج**
اثنين غصبن علي دايم يذكرونج — **واثنين بس تهشل حروفهن ميّه**

كما لا يلبث أن يصف وقع تلك الرسائل التي ترده من الحبيب.

مكتوب منك لفى ياخوي تقرا به — **من دمع عيني لاملّي الجود وقرابه**
فايض عليك البحر بالك تجي قرابه — **خوفي عليك تغرق يا نور عينيّه**

ثم نجدها وقد خلخلت عظامه تلك الرسالة التي وردته من أولئك اللائي أسقينه حنظل وخلّ.

مكتوب منك لفى خلخل عظامي خل — **عالمسبحيات الولد حنظل ومي الخل**

وهناك رسالة أخرى أغضبته.

مكتـوب منـك لفـى يـاخوي مزعلنـي   والعلـة الــ بالقلـب وتـروح تكتلنــي

وفي لون النايل اللون الأكثر رقة.

يطلب من حبيبته أن ترسل له رسالة بحبر يشبه لون وشم وجهها الأبيض الذي يشبه بياضه بياض الورق:

دزي سـلامج بالـدق اليـشبه وشـامج   دزينــا مـسودة خـاف العفـن ضـامج

هذا هو المكتوب وبعض أثاره التي وجدناها في الشعر الشعبي تلك الرسالة التي تحدث عنها شعراء العربية بشعرهم:

ولــم يبــقَ ممــا كــان بينــي وبينهــا   مــن الــودّ إلا مخفيــات الرســائل

ويقول آخر:

إذا لم يكن في الحب سخطٌ ولا رضا   فــأين حــلاوة الرســائل والكتــبِ

ولكل منها ذكراها وحلاوتها التي لا يستطيع وصفها إلا من نظمها وسجّى أشجانه وزرع بذيرات الفرح في تربة الأمل.

المطر

كغيرهم من البداة عشق سكان وادي الفرات المطر كسنفونية تعزف لحن الأمل، في بيئة شبه صحراوية لم تغنها مياهها الجوفية عن حاجتها لرذاذ المطر، ذلك الذي ينبت المراعي، ويروي الزروع، ويحمل لهم الخير والبركة، والكمأ.

حالة العشق هذه لم تغب عن مخيلة الشاعر الفراتي، بغزله وفخره وحكمته.

فنجده في لون العتابا، يرى بأن أهله أشبه بغيمة المطر تلك التي تحمل الفطر والكمأ:

هلـي يـا اهـل المحمـس والبريجـاي	**يقهـوة غيـركم حنظـل بريجـاي**
هلـي يالغيمـة البيهـا بريجـاي	**يمطلـع قاعهـا فطـر وجمـا**

كذلك يصف رذاذ المطر وهو يختلط مع الضفائر:

ثريـا تنـوح والـدنيا مـسكبه	**مطـر وجعـود خلانـي مـسكبه**
عجـاج الـضعن عنبـر والمـسك بـه	**اخيـر مـن القرايـا المعطنـه**

وفي جانب آخر يصف لنا تصاعد الغيوم، ويخبرنا بأن محبته لازالت في ذلك البيت، الذي يحتوي تلك الفتاة التي تشبه المهرة التي تأنف أن تشارك بالسباق.

نهـض غـيم جديـد وغـيم لـسع	**وهوانـا بـذاك البيـت لـسع**
مهيـره مـا دانـي الطـرد لـسع	**ولا خبـت شـواجلها الرجـاب**

ويكثر ذكر المطر في لون النايل ذلك اللون الذي يتراءى كمزيج من الحزن والحب في آن واحد ويصف لنا الشاعر حالة السكون تلك التي حملت مزيجاً من الغبار والمطر بآن واحد والتي تشبه حالة الشاعر الذي يطلب من الآخرين الامتناع عن لومه لأنه حزين وقلق على الأحبة الذين فارقوه:

جابت عجاج ومطر ساجر هوا ما بو لاحد يلوم القلب موجل على احبابو

ويصف لنا آخر الحالة ذاتها وكيف رأى الأحبة على أشعة البرق الذي رافق المطر ويتساءل هل يستمر بعمله أم يتركه ويذهب لاستقبالهم.

جابت عجاج ومطر عالبرق شفناهم مدري نـدير الوسـد مـدري نتلقـاهم

ثم يتمنى أن لا يكون المطر قد تهاطل لأنه ساهم بإبعاد الأحبة حيث رحلوا يبحثون عن مراعي لأنعامهم:

ريـت المطـر لامطـر أبعـد شـواليهم وريـت العشب لاطلـع ابعد محـاريهم

ثم يأخذ الحكمة من المطر ليخبرنا بأن الذي لا يبعد مياه المطر بجر أخاديد صغيرة لا بدّ أن يغرق وهو نسي أن يفعل ذلك حتى أمسى وكأن بقلبه مسمار من الحديد يؤلمه كلما تحرك:

المـايوني يغـرق نـسيت مـا ونيـت مسمار جوّى الضلع كلما حترك عنيت

وفي لون الموليّا:

يجد الشاعر شبهاً ما بين دموعه المتساقطة والمطر الذي يملأ الوديان سيلاً.

دهـري رمـاني رزي الحـال والـوني ومـن العسر ضاقـت الأيـام والـوني

ناديـت يـا سـاكن الوديـان ول ونــي من دمـع عينـي لفـاكم فيض عشويّه

أما في لون اللكاحي

فتحذر الشاعرة حبيبها من ذلك المطر القادم من الجنوب والذي يحمل صواعقاً معه زادته قوةً وتطلب إلى الحبيب ألاّ يبعد.

جابت مطر من جبله حيل المطر زنـازل   قولو لعشيري الغـالي لا يبعد المنـازل

أما في لون السويحلي فيتوسل الشاعر إلى المطر حتى يقلل من تساقطه على ثياب الحبيب لأنها غير كافيه لأن تقيه البرد:

حاجه مطر صب شوقي بطرق الثوب   ريتـو بالعطـب قلـبٍ سـلى الغـالي

هذا هو المطر برذاذه الذي عشقه البداة ومنهم الفراتيون وبسيوله التي تعلموا منها الحكمة حباً لما منحتنا إياه السماء وأملا طالما ترقرق في قلوبنا التي أحبت المطر وشذاه وأغانيه منذ الطفولة والصبا.

جفاء النوم

ثمة أشياء في النوم حيرت العلماء والمفكرين والأدباء، تلك الحالة التي تأخذ من عمرنا ثلثه، وهي حالة السكون والراحة و الأحلام، ومن آيات الله سبحانه وتعالى(*) أن جعل لنا الليل لا نور فيه، حتى نخلد إلى الراحة والنوم، وجعل لنا نوراً في النهار حتى نستعين فيه على قضاء أمورنا الحياتية يقول سبحانه وتعالى ﴿**وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً**﴾[١]

تعتبر نومة أهل الكهف من أطول فترات النوم التي عرفها الإنسان عبر تاريخ البشرية ﴿**ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً** ﴾[٢]

لم تقتصر أهمية النوم على الخلود إلى الراحة فحسب بيد أن النظريات الطبية تؤكد أن للنوم أهمية في ترتيب المعلومات التي يكتسبها الفرد نهاراً و في فترات الصحو فلا غرابة إذاً ما كان لجفاء النوم ألمه وحسرته أيضاً في عيون وقلب الشاعر الشعبي سيما وأن أبناء الريف يمتازون بالعاطفة الرقراقة فها هو شاعر(القصيد) الشعر النبطي يلوم الدهر ويعاتبه لأنه لا يحفظ عهود الصداقة فجعله لا ينام الليل:

أويـــل قلـــب مـــسنو لـــو اكيـــع   مـــن زغـــر ســـني الليـــالي غـــدرني

يـــا دهـــر يـــاخوان مالـــك روابيـــع   ادعيتنـــي مـــا نـــام ليلـــي أعنـــي

(*) القرآن الكريم.

(١) الآية ١٠+١١ سورة النبأ.

(٢) الآية ٢٥ سورة الكهف.

أما شاعر العتابا فنجده ينام الليل وفي قلبه لهيب النهار (أنام الليل كن بحشاي كانون) وفي جانب أخر فإنه ينام الليل وكأنه بفم أفعى:

أنــــام الليــــل كنــــي بــــثم حيـــّه	**معــضعض والجــروح اليــوم حيــه**
لفـت صـفر الـشوارب وقلـت حيّـه	**أحبــاب و غايــب عــن إلهــم ســنه**

أما شاعر الموليّا فانه هجر النوم بعد أن عاودته ذكرى الحبيب ذلك الذي اعتاد على ترحابه المتكرر.

نامـت عيـون الخلـق تميـت سـهران	**علــى وليــف القلــب هــلاً ولاقــاني**
شـفيت مـن لامهـا مـي البـسطمان	**بـرق الهريـف اللعـج ضـوحة ثمانيّـة**

ونجده مرةً أخرى يعاتب الحبيب الذي أحرمه النوم بغرامه الذي أحرق جفونه.

يــا مــن غرامــك حمــس جوحــابي	**أحرمـت عينـي لذيـذ النـوم بجفـوني**
لو تحق لـي لاحوش الشوك بجفوني	**أنــت بنعمــة ولا تــدري شـجرى ليّــه**

أما شاعر النايل فإنه يعاتب الأحبة أولئك الذين ناموا وتركوه وجفنه يسحن الليمون.

انـتم تنـامون وعينـي تـسحن الليمـون	**مدري تجونـا السنة والا العمـق تـشتون**

ويعاتبهم مرة أخرى كيف ينامون، وهو لا ينام الليل ويشهد على ذلك نور الفلق ونجم سهيل.

إنــتم تنــامون وآنــا الليـل مــا نــاموا	**ألاّ يبــين الــشفق وســهيل جــداموا**

أما في لون اللكاحي

فنجد الشاعر يتألم لشدة حرارة عيونه التي أصبحت كموقد النار الذي دفن بالرماد وهو مشتعل.

كــل الخلــق جاهــا النــوم وآنــي عينــي مليلــه

هلـــي دمـــع يـــا عينـــي عالهالفرقـــة الطويلـــة

وهو لم ينم والناس نيام وعينه تؤلمه وكأن عينه طرفت بالعود ويستخلف ما أضاعه برحمة الله سبحانه وتعالى التي تسمو على ما كان ينتظره وفقده.

كــــل الليـــــل نتعلـــــل عينـــــي طرفهـــــا العـــودِ

وإحنـــا خلفنـــا بــــالله يـــا أهـــل القلـــوب الـــسود

ذلك ألم جفاء النوم، تلك الحالة التي نرى فيها أحلامنا وآمالنا التي ربما عجزنا عن تحقيقها، في حياتنا اليومية، والتي نرى فيها حبيباً فارقناه أو صديقاً رحل عنا، أو عزيز انتقل إلى حياة أخرى. وصف الشاعر الشعبي الفراتي جفاءها بألمه الذي لابدّ أن عرفه أحدنا ذات ليلة وأضناه سيما إذا كان ذلك الجفاء في ليلٍ شتائي مظلم وطويل.

قلائد الذهب

عرف الإنسان منذ القدم معادن سبعة، (الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والأسرب و الخارصيني ....) ويقول الأبشيهي[1] في خواص الذهب: إنه يقوي القلب ويدفع الصرع تعليقا ويمنع الفزع والخفقان، ويقوي العين كحلاً، ويجلوها إذا كان ميلاً ويحسن نظرها وإذا ثقبت به الأذن لم تلتحم.

لم تقف محبة شاعر الفرات للذهب وإعجابه به عند خواصه فحسب، بل تعدت ذلك إذ رآه ركناً من أركان الجمال والزينة.

فنجده في لون الموليّا يصف لنا النسيم ، وكيف يداعب تلك القلائد التي تداعب صدر الحبيب، فيذكره النسيم به إن نساه، فيطلب من الآخرين إن تزوج حبيبة أن يبنوا له خيمة في موضع عالٍ ، لأن قلبه على فراقه كالسيخ فوق الجمر.

هـــب العـــذيمي وقـــب قـــب شـــوكرو والطـــوق

كلمـــا يهـــب الهـــوى حنيـــت لـــك يـــا شـــوق

دقـــم بـــراز الحلـــو بـــأالله انهـــضوا لـــي فـــوق

قلبـــي علـــى فـــراقهم ســـيخ بجمريّـــه

ومن الملاحظ أن الذهب كثر ذكره في لون "المامر"، وهو أحد أشكال التشاطيف، تلك الأغاني الخفيفة، وشكله بيت بأربعة أشطر، أشطره الثلاثة الأولى موحدة الروي وشطره الرابع ينتهي بالراء حصرا، مثل:

---

(١) المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف / الأبشيهي/ .

أبـــو الخديـــــد الـــــوردتين العـــاوي
والطـــوق مـــن ثقـــل الجديلـــه عـــاوي

ماســـلاك لـــولا الـــذيب يـــسلى العـــاوي
أمـــا حليـــب النـــوق يلبـــى ويخثـــر

والطوق هنا أحد أشكال القلائد الذهبية المعروفة في وادي الفرات ويعد حبيبه أن لا ينساه مطلقاً حتى ينسى الذئب العواء، أو يصلح حليب النوق أن يكون لبناً رائباً ونجده في جانب آخر يرى الحبيب كالذهب الخالي من العيوب:

أبـــو الخديـــد الـــوردتين الـــلالا	**يـــا ذهـــب مامـــشخول مابـــك لـــولا**
قلـــت لهـــا أروح ويـــاك قالـــت لا لا	**نفـــسك دنيـــا وزاد طبعـــي أكـــشر**

وهو كالذهب الذي لا يصدأ، ولقد صاده ذلك الذي يشبه الغزال بجماله على نقيض أولئك الذين اصطادوا البوم.

أبـــو الخديـــد الـــوردتين الـــصاد	**يـــا ذهـــب يـــا مـــشخول مابـــك صـــادِ**
كـل مـن قـنص لـو بـوم خمـل صـاد	**وآنـــي قنـــصت ريـــاح غـــزلان البـــر**

وهو مزين بالذهب الذي وضعة صفاً فوق جبينه، ذلك الذي افتقده وأخذ يبحث عنه بين قطيع الغزال وهو يبكي لفراقه.

أبـو الخديـد الـوردتين الـصف صـف	**وذهوب أبو لعبيه على قصتو صف**
نـدور العانـات مـن صـف لـي صـف	**مـــذهب حبيبـــي والـــدمع لـــو مبثـــر**

كما لم تخل ألوان التشاطيف الأخرى من ذكر لقلائد الذهب

فها هي / التركيّة / فوق خدوده تتراءى بكامل جمالها. وهو يعتب على الحبيب الذي حدثه حديثاً غبنه فيه.

عـــاليلغبن عـــاليلغبن عـــاليلغبن	**والتراجـــي فـــوق خـــدو يلغـــبن**
لـــيش تحـــاكيني وكـــل حكيـــك غـــبن	**ذبـــل زرعـــي والكـــرود مروشـــنه**

وفي لون اللكاحي تتباهى بالقلادة التي زينت صدرها وتصفها بالرقة وتطلب من الآخرين أن يبعدوا ابنهم عنها كونه لا يستحقها.

تنهـزرم ولـدكم تـرى ولـدكم عاقـة ما طوطح الجديله وما قطع الخناقة

تلك بعض مواطن القلائد الذهبية في ألوان الشعر الفراتي التي تعاشقت مع الشعر والحب والجمال بريقاً تراءى لنا كالأمل المفقود القادم مع الأفق وعطراً حاول إخفاءه عاشق ذات مساء ولم يفلح.

وصف العيون

يعتبر البيولوجيون العيون جزءاً ظاهراً من الدماغ، ومن ذلك تقول العامة قرأت ذلك في عينيك إشارة لرؤية الأفكار المترسخة في الذهن أما الشعراء فيرون في العيون مكمناً للجمال وسحراً للقلوب وكناناً للأسهم لذلك حظيت العيون بنصيب كبير من الشعر العربي قديمه وحديثه الفصيح منه والعامي وقد تبوأ جرير[1] قمة الشعر – بتصنيف بعض النقاد – حينما قال في العيون:

إن العيـون التـي فـي طرفهـا حـور　　　قتلننـــا ثـــم لـــم يحيـــين قتلانـــا

يـصرعن ذا اللـب حتـى لا حـراك بـه　　　وهـــن أضـــعف خلـــق الله أركانـــا

والشعر الشعبي في وادي الفرات، تلك الأبيات المنفردة في أغلب صنوفها لم يخل كغيره من صنوف الشعر العربي من ذكر محاسن العيون وصفاتها حيث أخذت نصيبها من الشعر الفراتي كنصيبها من الجسد سواء كان ذلك في القصيد أو العتابا أو الموليا أو النايل أو اللكاحي، فقد رآها شاعر القصيد مكحلة واسعة يعلوها حاجبان كخطوط القلم:

امـــزوق العينـــين رعـــل الروابيـــع　　　خطـوط القلـم مـن فـوقهن ينـاجي

امـــدور الخـــدين بـــدر المطـــاليع　　　نجـــم الثريـــا بجبينـــو أظـــن

أما شاعر العتابا – الأبوذية – فأنه يرى نفسه أسير لذي العيون الزاهية.

انطلـق طيـري علـى الـصيدات ونهـد　　　شـــذر مـــابين دق الـــصدر والنهـــد

كـم مـسجون قبلـي انـسجن ... ونهـد　　　وأنـــا بـــسجنك يـــا بوعيـــون زهيـــة

---

(١) ديوان جرير.

أما شعراء المولیا[1] فقد أولو العيون أهمية بالغة حيث أخذت مكان الصدارة بين أوصاف الحبيب؟

فهي قاتلة كطلقات البندقية تارة.

عيونو فشك ما طلي موزر ومد ابها — عيون ما تشوف الولف عود الرمد ابها

لضرب فجوج الفلا بالليل والوبها — مثل مغلوث نتزع شوفو عن الميه

وذابحة تارة أخرى:

بعد ما بان الفجر الغر صابحني — ونسلهمت عينها بالهدب تذبحني

من بعد هرج الغلط وتقول سامحني — لانت المسامح ولا لك بالعذر شيّه

لكنها الوحيدة التي تملأ العين إعجاباً:

من غير عيونك فكد محد ملا عيني — الله يجازي الربع صارم ملاعيني

النجمة اللي ورا السايج ملت عيني — وهذاك نجم السما كلّو ولا شيّه

مع أنها هي التي تذكر القلب بجرحه:

من غير عيونك فكد محد لكم قلبي — ولا مشت لي رجل وركبت أنا الدرب

ما زال قلبي أخضر وينسم الغربي — مترك هوى ريمة منها زغر ليّه

أما شاعر النايل فيرى عيني الحبيب كعيني الغزالة الضامرة بشهر تموز:

الطول كله رقبه والصدر كله حروز — والعين عين الغزالة الضامرة بتموز

وفي لون اللكاحي يرى الشاعر حبيبته كغزالة ضامرة وقد كحلت عينيها:

لاعن عنين المكسور اللي اهلو يدارونه

ولفي غزال مضمّر ومكحلات عيونه

---

(١) شعراء المولیّا في القرن العشرين: دار الغدير ٢٠٠٠.

وبدا بذلك الشعراء الذين وصفو العيون أرق إحساساً، وأرهف شاعرية، لأن شعرهم يطفو فوق ينبوع صاف من العواطف الصادقة، التي تغرق القلوب الوفية بألم الوجد ، لنرى في الإنسان إنسانيته كاملة دون زيف أو رياء، وتلبسه ثوبه الرائع الذي يبدو به تقويمه الذي خصه به سبحانه وتعالى.

طول القامة

تقول الحكمة الشعبية: (خذو الجهايم لو كانن بهايم، إذا ما جابن أبطال يجيبن طوال). أي بمعنى تزوجوا طويلة القامة، ولو كانت قليلة الإدراك فإنها إذا لم تنجب بطلاً ستنجب طويلاً.

أما المتنبي فإنه لا يرى خيراً في الأجسام الطويلة إن لم يواز طولها عقلاً.

ولا خير في حسن الجسوم وطولها　　　إذا لم يزن طول الجسوم عقول

ويرى البعض أن طول القامة يوازي ثلثي جمال الإنسان.

لم يقف الشاعر الشعبي عند هذه وتلك، بل إنه رأى الحبيب يشبه شجرة "السرو" بطوله وفي جانب آخر يشبه شجرة "النخيل" و"الغرب" و"الصفصاف" و"اللبلاب" و"اللبينة".

فهاهو في لون "العتابا" ذو عينين سوداوين، تشبه عيني الصقر، وتشعُّ وجنتاه نوراً، لكنه لا يشبه بطوله شجرة "الغرب" أو" الحور" بل إنه يشابه شجرة "السرو" المعتدلة فقط.

عيونك سود سارجهن من الحر　　　ياضن يروس وجناتك من الحر

أدور بالغرب مالقاك بالحور　　　يشبهك عود سروٍ ......بالرها

كثر الحديث عن طول القامة في لون النايل:

فهي تشبه الريشة في مشق قامتها، وتتخايل بزيها الجميل الذي يلامس الأرض ولن ينساها حتى يموت.

طولك رياشي....يردن الثوب كشاشي مسلا وليف القلب لو شالم نعاشي

ويطلب من ذويها أن لا يمنعونها من زيارة الآخرين، تلك التي تشبه الغزالة، التي تجابه الريح، ولم تشرك في جلستها الا ذوي العقول الراجحة.

لا تنهـــرون الطويلـــة هنـــوف ومنـــاحرة عـــذيمي

مـــا جالـــست كـــل ولـــد غيـــر المفـــاهيم

وقد اقتصر طولها على طول الرقبة وجمال وجهها على جمال عينيها أما لون خديها فإنه يشبه الورق الأبيض المستورد.

الطول كله رقبة والوجه كله عيون والخد طلاحي حلب بيد العجم يقرون

وإضافة إلى طول رقبتها فلقد زينت صدرها بالذهب واللآلئ، أما عيناها فإنهما تشبهان عيني الغزالة، التي امتنعت عن شرب الماء، في القيظ الحار.

الطول كله رقبة والصدر كله حروز و العين عين الغزالة الضامرة بتموز

وطوله لا يشابه طول الآخرين، وهو يشبه نجم "سهيل" ويتعجب منه كيف يمشي على الأرض.

طولـــك مـــن الله حلـــو يطـــول النـــاس شـــبر وشـــي

وأنـــــت ســـــهيل خفـــــي وشـــــلون تاتمـــــشي

وطوله يشبه طول شجيرة "اللبينة" التي نمت على قمة الجبل، ولم تطلها المواشي.

طولـــك لبينـــه عـــدل مـــن عـــالي الجبـــل حـــشناك

ســـعيد مـــن واســـدك وقـــضى العمـــر ويـــاك

أما في لون السويحلي فإنها ممشوقة القامة تشبه عود الخيزران و"الصفصاف" ويتساءل لما ذلك النحول هل هو من النعاس أم أنه من العشق.

يالخيزرانـــه يانبعـــة الصفـــصاف   مـدري نعـسانه والا الهـوى رامـيج

وفي لون اللكاحي:

يراه الشاعر طويلاً ممشوقاً يشبه "مجرد الحديد" ولقد فقد عقله بسبب فقدانه للحبيب.

طولـــك عـــدل طولـــك زيـــن يـــا مجـــرد الحديـــد

ثلـــث العقـــل ضـــيعتو والـــشوق راح مـــن يـــدي

وهي تأسف لقصر طول من تزوج حبيبها منها، وقد سبق وإن قامت بقياس طولها وطوله وذلك العمود المعتدل الذي ينهض به رأس بيت الشعر فتساووا طولاً.

قـــدرت طـــولي وطولـــك علـــى عـــامود الجاســـر

مـــاهو حـــرام مـــن الله طويـــل ياخـــذ قاصـــر

لكن شاعر الموليا كان أبرع بوصف طول الحبيب ذلك الذي يشبه غصن البان عندما يهزه النسيم القادم صباحاً من جهة الغرب.

اســـمر ســـمارك حلـــو مـــا هـــو بلـــون الـــبن

لكـــن بلـــون العـــسل وي الـــشمع لـــو بـــان

طـــول المـــدلك حلـــو ويميـــل غـــصن البـــان

ويلاعبـــو مـــن هبـــوب الفجـــر غربيـــه

تلك هي سمات القامة الممشوقة التي خص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات ليتمثل قول الخالق سبحانه وتعالى ﴿**ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾.

بصورها في الحكمة والشعر بشقيه الفصيح والعامي، وقد اهتم بها الرقيون، كون الأزياء التي يرتدونها تتناسب والقامة الطويلة الممشوقة والتي صورها الشاعر الشعبي وبرع في تصويرها، رسمها إعجاباً وجسدها حباً يشع وميضاً أطربتنا تراتيله .

النجم

كثيرةٌ هي الحكايات الشعبية التي كان أبطالها النجوم، وكثيرة هي الأشعار التي زين ليلها النجم، فهو صديق المسافر ومؤنس المغترب وطالما قال الغريب (هذه النجوم فوق بيتنا الآن).

ومع ما وصلت إليه الحضارة من تقنية، أمسى النجم صديقاً منسياً للإنسان من حيث أنه لا يراه إلا من نوع الصدفة ولا يعرف الآن أسماء بعض النجوم إلا المتخصصون في مجالي الطبغرافية والفلك، وإذا ما استعرضنا بعض جوانب الفلكلور فإننا نجد للنجم صورةً بارزةً كما هو حالها في السماء المظلم لا سيما في الشعر. فقد كان دليل الشاعر إذا ما ضل الطريق، وشريكه في الأسى.

فنجده في لون الموليا المؤنس والسبيل للموارة والإيحاء ، فعندما يقول الشاعر بأنه يسير في البادية ونجم سهيل أمامه فهذه قرينة على أنه كان في الشمال وقصد الجنوب:

أركب لجية الفحل وشدادها شامي   أمشي مع البادية وسهيل جدامي

لمن قالوا لي رحل مردوع الوشامي   ضحاح خدولعج برق الهريفيه

ونجده في جانب أخر يلهو بعد النجوم سالكاً بذلك سبيل الصبر فيعدها عقداً عقداً:

ظليت أعد النجم عشرة بثر عشره   لمن لقيت الهنوف التفهم العشره

يصدر خية الوالد يتمر بقشره   الجايبينو جلب تجار ديرية

وما برحت النجوم أن تكون دليلاً يستهدى به:

عيف المنازل ولا لك بالملا ناشد   وافتح فجوج الخلا وبسيمة الراشد

حـط النعـايم علـى يمنـاك والراكـد   ولوذ بيمينك على الصوبه الشمالية

وقد يكون غياب النجم موعداً لرحيل الحبيب:

لـي سـار نجم الـسما تيسر وسـار   أمسي وأخف الجدم وآخذ باليسار

لـي حبيـب مـضى أسـمه باليـسار   يهلـن دموعـي علـى لـذة معانيّـه

وفي لون النايل تبدو النجوم ملتهبة كقلب الشاعر الذي يطيب له المسير نحو الحبيب مشياً على الأقدام:

النجمة الشعشعت تلهب لهيب حشاي   يزين قصد الولف لي جيتهم مشاي

وفي جانب آخر تبدو عيون الحبيب كالليل الأسود لكن خدوده كضوء نجمة سهيل:

عيونـو جمـا الليـل.... خـدو كلميـع سـهيل

ضـامر يـاولف القلـب كالجافلـة مـن الخيـل

وتبدو النجوم خجولة إذا ما ظهر الحبيب بحسنه.

الـسهيل صـد واختفـى والقمـر غـاب بـساع

خجـلان مـن طلعتـوه مـن أم العيـون وسـاع

لكن الشاعر بانتظارها لأنها تحمل أخبار الحبيب المفقودة.

كواكـب بالـسما مـساهر وأنـا أتناهـا   مـسيرها مـن الولـف بلكـي نتلقاهـا

ثم لا يلبث أن يطلب من بنات النعش /نجوم الدب الأكبر/ أن يهبطن إلى الأرض ليشاركنه الحزن.

يـا شـايلات الـنعش حـدرن علـي بالقـاع

يـا بايعـات الحـزن بـس لـدليلى نبـاع

وبقيت النجوم محسودة في عيون الشاعر لأنها متناثرة فوق منازل الحبيب:

مـسعد يـاذاك الـنجم الفـوقهم منثـور   يدموع عيني جرن أزود من الخـابور

أما في لون اللكاحي، فيبدو الشاعر بصراع مع النجوم فهو يريدها أن تغيب عنوةً، لأن خدود الحبيب تحمل أنوار النجوم المشعة.

كل النجوم غيبتو ألا الجدي عصاني   خدك نجوم الثريّا والسهيل والميزان

ولا يلبث الحبيب الذي يشبه النجم الساري والذي أشرف على الغيـــاب أن يكون الحبيب المرجو دائماً.

شوقي يانجم ساري حدّر على مغيبو   ابـن العرب شنـدلني يـاريتني نـصيبو

وبذلك نجد النجوم وقد بدت بين كلمات الشاعر الفراتي متلألئة كالدر وقد بدا الشعر كالفرات الذي تسبح النجوم فيه في ليل خريفي هادئ، وهي ترمي بأنوارها على شجيرات الطرفاء، وأشجار الغرب وتلك الضفاف التي سكنها أهلها نهاراً وهجروها ليلاً ليتركوا الفرات يصدح بأغانيه ويردد أناشيد الخلود.

الطارش

هو ليس باللائم ولا بالعذول، ولا النمام الذي لم يجد له الفرنسيون مرادفاً لاسمه في لغتهم، وإنما هو ناقل الأخبار، في زمن كانت به وسائل الاتصال الحالية غير متوفرة، ولغة الرسائل غير متقنة من قبل أولئك البسطاء الذين علمتهم الفطرة فقط، والذي ينقل أشواق الأحبة فيما بينهم، وأحداثهم وصفاتهم وأشعارهم وربما بطولاتهم، والذي ائتمنوه عليها، ما حمل لهم وما حملوه هم، حدثوه شعراً، وذكروه في أشعارهم كيف لا وهو رسول الأحبة.

وقد برزت هذه الظاهرة في لون النايل لتناسب مواضيعه مع وزن لون النايل، وفكرته العابرة والخاطفة.

فلقد أقسم شاعر النايل على أن يبكي ويبكّي الأحبة ويبكّي الطارش كذلك لأنه فقد الأحبة، ومنذ فقدهم ونيرانه تلتهب.

لابكــي وابكــي الولــف وأبكــي الطــارش الجــاني

مـــــن يــــوم فـــــارقتهم وتزيــــد نيرانــــــي

ولولا الحبيب لم يغن /النايل/ الحزين، وهو لأجله يسأل كافة الطراش ويحملهم أن يسألوا الأحبة كيف ينسونه وهو الذي حفظ العهد الذي بينهم ولم يمنح بسمة لأي أحد غيره.

يــا طــروش نـــشدو الولـــف و شـــلون يـــسلاني

آنـــي الحفظـــت العهـــد مـــا باســـمت ثـــاني

ولم تكن أخبار الطارش سارة، ومن أجل ذلك هجرت عيناه النوم.

الطـارش اللـي لفـى ماسـرني بعلـوم والعين بعد الولـف عافت لذيـذ النـوم

أما في لون الموليّا فإنه يحمل الطارش سلامه وعتبه، وسؤاله كيف يغدر به الحبيب، ومع ذلك بقي يراه ذا نية نقية.

يـا طـارش احبابنـا بلـغ سـلامي لهـم حبـل الـوداد انقطـع مـن يمنـا ويمهـم

مـا بـان منّـا ردى بـان الـردى مـنهم حملـك سـلام وعتـب ولراشـد النيّـة

كما طلب الى الطارش أن يتعمد الذهاب إليهم ويبلغهم بأنه يبكي عليه بكاء الجمل الذي فقد الأحبة.

يـا طـارش أحبابنـا ون جيتهم عـاني اسـلم وسـلم علـى حلـوين المعـاني

لابكــي علــيهم تــوال الليــل واعنــي مثــل مفــرود فقــد ولفــو عــشاوية

ولقد ناح الفراق في قلبه كالحمام، فكيف يرتاح ذلك القلب بعد فقدانهم ويطلب الى الطارش أن يسرع في الذهاب إليهم، ليخبرهم بأن الهم والحزن قد سكنا في قلبه.

يكـرك بقلبـي عجـول فـراقهم والـرّاح منـهو اليقول القلـب من بعدهم يرتـاح

يا طارش خف الجدم بـالله عليهم روح قـولهم بعـدكم صـرت هـم وغثـى بيّــه

وهو يهلي بالطارش مرحباً به، وأمسى كالمفطوم لفــراقهم ، ويحملــه أمانةً أن يطلب إليه وأن يأتيه أبان تساقط الندى.

ياطــارش أحبانــا مرحــب بهــا لعينــه قلبـي علـيهم قلـب مفطـوم مـن حينـه

يــاخوي خـذ لـي أمانــة لعنـد غالينــا قـل لـه بعدكم صـرت هـم وغثـى بيّـه

وهويطلب من الطرّاش الإسراع في نقل الأخبار الى الأحبة، وليس له من ينجده على خطبتهم، وهو مستعد لأن يمنحهم قلبه شريطة أن يحفظوا العهد الذي بينهما.

الخاء خقّوا الجدم ياطروش وش تتنون   مالي عليهم نجد يا أهل المروة شلون

أحبابنـا أبعدوا هرش القلب يـردون   بـس لا يخونـوا العهـد ويبـدلوا النيّـه

هذه هي صورة الطارش، ذلك الذي أسّر العاشق تارةً، وأحزنه مرة أخرى، دون أن تكون له يد بذلك، مرسومة كما رآها، ومنقوشة على قلب أضناه الحبّ ذات مساء، واعتصره شعراً.

شدا به المغنون واستأنس به من تبعه من/أهل الهوى/ كما يقول الفراتيون.

السلام

السلام اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وقد حث عليه رسول الله (ص) بقـــوله:

«افشوا السلام بينكم»[1]

ويقول لبيد:

إلى الحول، ثم اسم السلام عليكمـــا   ومـن يبـك حـولاً كـاملاً فقـد اعتـذر[2]

وهو كمعناه، إشارة للسلم بين المتلاقين، ليأمن كل منهما الآخر، وهو رمز المحبة والتواصل بين المتراسلين، وفي السلام رموز عديدة، حيث يرسل بعضهم هذه المفردة بقصد التذكير بموضوع معين، لكن الغالب يقصد فيه المحبة واستمرارها، وقد لا يستطيع البعض إبلاغه للآخر، خشية النمام أو اللائم بشكل صريح، فيستعيض عنه بحركات العيون أو الحواجب.

تقول الأغنية الشعبية العراقية:

سـلم علـيّ بطـارف عينـه وحاجبـه   أدى التحيـة وزيـن يعـرف واجبـه

وتقول أخرى:

أرسل سلامي عجل بجناح الخضيري   وربيتهم من زغر صارم ولف غيري

وإذا ما بحثنا عن هذه المفردة ومعانيها وأساليبها وإيحاءاتها في الشعر الشعبي الرقي، لوجدناها كثيرة، ولا سيما في لون الموليّا.

---

(١) تفسير ابن كثير / ج٢ /ص ٣٧٠.

(٢) تفسير الطبري /ج١ / ص١١٩.

حيث يبدأ به الشاعر رسالته إلى "الملاّ" معلم القراءة والكتابة، ليخبره عن أوصاف الحبيبة فهي ليست بالغة الطول، وإنما بطول مناسب.

أول مـا خـط القلـم سـلام للمـلاّ　　　　مـا هـي طويلـة بحـر ومناسـبة مـلاّ

دورت نـزل الحمـد لمـن عطلـت منّـه　　　　ومـا لقـى تواصـيفها بـبلادكم ذيّـه

ويخص عيون الأحبة في سلامه، ويخبرهم بأن قلبه وفكره. يذكرانه دائماً بينما تذرف عيناه الدموع بشكل متكرر.

أول مـا خـط القلـم سـلام لعيـونج　　　　وان جاد، ليلى صدقت لا صير مجنونج

اثنـين غـصبن علـي، دايـم يـذكرونج　　　　و اثنـين بـس تهـشل حـروفهن ميّـه

ويرسل سلامه مكتوباً على ورق أبيض، ويضعه في مغلف حتى يأمن أن لا يلمسه شيء، أو يعبث به، ليخبر الأحبة أن قلبه قد تكوّى لأنهم نسوه، وعيناه تذرفان دمعاً يملأ مساحات من البراري.

أرسل سلامي بورق وبظرف مضموني　　　　أبـو جعـود شـقر لا حـن عـالمتوني

قلبـي كـواه الهـوى، وانـتم نـسيتوني　　　　العـين تـذرف دمـع غـدران بريّـه

ويا مبلغ السلام بلغ الأحباب سلامي، بعد ما قطعت المودة بيننا ولم نكن نحن سبباً في ذلك، بل هم الذين أساؤوا لنا، ولا تقتصر على نقل السلام فقط بل بلغهم عتاباً أيضاً.

يـا طـارش أحبابنـا بلـغ سـلام لهـم　　　　حبـل الـوداد انقطـع مـن يمنـا ويمهـم

مـا بـان منـا ردى بـان الـردى منـهم　　　　حملـك سـلام وعتـب ولراشـد النيّـه

واذهب إليهم قاصدهم فقط، وبلغهم سلامي أولئك الذين كانت كلماتهم عذبة، سأبكي وأعن عليهم لشدة ألمي كما يعن الجمل الذي فقد أحبته مساءً.

يـا طـارش احبابنـا ون جيـتهم عـاني　　　　اسـلم وسـلم علـى حلـوين المعـاني

لابكـي علـيهم تـوال الليـل واعنّـي　　　　مثـل مفـرودٍ فقـد ولفـو عـشاوية

ولم يقتصر ذكر السلام على لون الموليّا فحسب بل ورد ذكره في النايل أيضاً.

فهاهو شاعر النايل يرسل إلى الأحبة سلامه ويطلب من ناقله أن يزيده ويسألهم لماذا الصدود؟

سلم وزيد السلام ان جيت لغوالينا   قلهم عليش الزعل و الناس تشنينا

وهو يلقي بالسلام إلى الأحبة لكنهم لم يردوه له، وهو يجهل سبب ذلك.

اسلم عليكم يا غوالي سلامي ما تردونه   مدري زعل من قبل لولا البلا دونه

ويرحب بالنسيم القادم من فوق الفرات لأنه يحمل سلام الأحبة.

ريح العذيمي اللفى من فوق شط   شايل سلام الحلو هليت بيه من قاد

وفي لون اللكاحي:

يرحب بالنسيم الذي لا يمكنه الإمساك به، والذي جاء بسلام الأحبة من تلك البلاد البعيدة.

يا مرحبا بالغربي ما ينقضب باليدي   شايل سلام الغالي من بلادٍ بعيد

هذا بعض ما ورد في الشعر الفراتي من ذكر للسلام الذي لم يخلّ جلّ ألوانه منه ما ذكرنا منها وما لم نذكر.

فما أعذب كلمات الحبيب وإن جاءت مقتصرة على كلمة واحدة لكنها تحمل بين طياتها محبة وشوقاً، وعتاباً، وأملاً روى لفاقدٍ قلباً يلتهب ويزداد محبةً، وبحزنٍ يزادا سعادةً، ويغترب ويزاد قرباً.

الحظ

الحظ، النصيب، (الشنص)[*] مفردات ثلاث يستخدمها الفراتيون بمعنى واحد، ويقرونها بأشياءٍ شتى.يرى البعض بأنَّ الحظ قضاء وقدر وقسمة من الله سبحانه وتعالى، ويرى آخرون بأنَّ الحظ يقترن بالأزمنة والتمائم والأحجار الكريمة، فتجدهم يحملون أحجار الرزق وأحجار أخرى للمحبة وبعضها الآخر للسلطة، وتُحمل أسنان الذئب لدرء الخوف وتُحمل عيونه لمدافعة النوم، كما تُحمل قطع من جلود الحيوانات لاعتقادات مختلفة.

ورد ذكر الحظ في القرآن الكريم[١] في أربع مواضع. يقول سبحانه وتعالى:﴿**يُوصيكُمُ اللهُ في أولادكمْ للذَّكرِ مثلُ حظِّ الأُنثيين فإنْ كنَّ نساءً فوقَ اثنتين فلهُنَّ ثلثا ما ترك**﴾. النساء الآية (١١)

ويقول أيضاً: ﴿**فلهُما الثُّلثانِ مما تركَ إن كانوا إخوةً رجالاً ونساءً فللذَّكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ يبيِّنِ الله لكمْ أن تضلُّوا والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ**﴾. النساء الآية(١٧٦)

كذلك:

﴿**فخرجَ على قومهِ في زينتهِ قال الَّذين يريدون الحياة الدُّنيا يا ليت لنا مثلَ ما أوتيَ قارونُ إنَّهُ لذو حظٍّ عظيم**﴾. القصص الآية (٧٩)

و: ﴿**وما يلقاها إلاَّ الَّذينَ صبروا وما يلقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم**﴾ فصلت الآية (٣٥).

(*) الشنص: مفردة أعجمية (Chance) تعني فرصة.

(١) القرآن الكريم. تفسير القرآن / عبد الرزاق الصنعائي.

ويقول المفسرون: الحظ العظيم هو الجنة.

وللحظ أسماءٌ أخرى القسم (بكسر فسكون) وهو الحظ والنصيب من الخير ويسمى (القط) كما يسمى منقوص الحظ (المحارف)، كما ورد ذكره في الشعر الفصيح .يقول الشاعر:

إن حظـي كـدقيق بـين شـوكٍ نثـروه   ثـم قـالوا لحفـاةٍ يـومَ ريـحٍ اجمعـوه

صعب الأمر عليهم قال قومٌ اتركوه   إن من أشقاه ربي كيف أنتم تسعدوه

وإذا ما أعدنا النظرة ذاتها إلى الشعر الشعبي فإننا نجد نصيباً للحظِّ من الحديث فيه لاسيما وأن المعتقدات الشعبية تلعب دوراً رئيساً في حياة الرقي كونه يعيش في بيئة بسيطة بحيثياتها وجزئياتها، فها هو ذا شاعر الموليا يتعثر بحظه السيئ ولم يحظ بشيء جميلٍ بتاتاً ويطلب من عينيه أن تسكب الدموع الغزيرة جراء ذلك:

هلـي يـا عينـي دمـع مـابين حوضـين   تـروي بـويش الفحـل أيـوب وبنيـة

وهو يشكو كما يشكو الفدان من (المشفن) ودموعه تجري على وجنتيه ولم تجف. ويخبر صديقه بأن حظه قد أفني تماماً كونه قد فقد حبيبه ولم يعد بين يديه أيُّ شيءٍ:

شـكيت لـك مـا شـكا الفـدان للمـشفن   يدموع عيني على الوجنات مـا نـشفن

إن جاد حظك جدى يا خوي حظي فان   ضـيعت ولـف الجهـل وشـعاد بيديَّـه

أما في لون النايل فإنها تعلم بأن حظها متعثر وهي غير قادرة على صنعه:

أدري بحظي جدى والسعد مو بيدي   مـالي عليـكَ عتـب معذور يـا زبيـدي

ويتكثف ذكر الحظ في (النعي) فلقد انتظرها الحظ على مورد الماء وكدر لها الماء الصافي:

حظـــي رابـــط لـــي عالـــشرايع   عكـــر علـــيَّ صـــافي المـــي

وهو ينتظرها خلف بيتها مستاءً ويستفسر كيف تغني:

حظـــي جاعـــدلي ورا البيـــت تـــصنت علـــيَّ كيـــف غنيـــت

وهي تعرف نصيبها من النعجة(الحايل):

حظـــي مـــن الحايـــل عرفتـــو كـــراع ومـــضيع ضـــلفتو

وهي تعلم بأن نصيبها من القثاء قد هشمه الدود وليس لها حـصة مـن البطيخ إلا القشور:

حظـــي مـــن العجـــور منجـــور وحظـــي مـــن الدبـــشي قـــشور

أما في الأقوال المأثورة فإن الحظ إذا جاد يتحدث عن صاحبه في المجالس، وأن كلاب المحظوظ كثيرة النباح:

لـي جـاد حظـك بالمجـالس حكالـك ولـي جـاد حظـك حميت ضـواريك

أما المنصفون فإنهم يقولون:

افـــزع لابـــن عمـــك بـــسيفك ولا تفـــزع لـــه بحظـــك

أما الحكمة فأنها تناقض هذا وذاك، إذ تقول :(إن الرجل العظيم يصنع حظه بيده).

– هذا هو أثر الحظ في الذاكرة الشعبية الرقيَّة الذي قففناه بتأمل وتمعن عشناه وعشنا معه في ذكرى وحالة وأمل ولا ندري أين حط وأين مرساه وما هو إلاّ من خلال ذاكرة تشعُّ بوميض ٍ طالما جذبنا إليه واستجبنا له ألفة ومحبة وعطاء.

الـورَّادات

الماء والكلأ والهواء أشياء ثلاثُة، تبنى عليها حاجات الإنسان الضرورية، التي قوم الله سبحانه وتعالى حياته بها.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿**أفرأيتم الماء الذي تشربون**﴾ القمر آية(٥٤)

والفرات ذلك النهر العذب الذي سرى فيه ماءٌ تاركا خلفه خيراً وبركة. كان مقصداً كان مقصداً لكل من بحث عن مقومات الحياة

وحين نستعرض حياة الإنسان الفراتي بشكل عام والرقي بشكل خاص، نجد حياة بسيطةً، بدوية وشبه بدوية وريفية.ومدنية، ذلك إلى صلته وتواصله مع النهر وطريقة حصوله على الماء ونقلها لنجد أن النساء قد اختصصن بذلك بأدوات عدة منها القربة والخطرة والجود والدن وكان يقترب في النزول من الفرات أو أحد روافده أو الآبار التي يرتوي منها وأنعامه.

وكانت هذه مورداً مباشراً للغزلان والصبايا وهي باعث الحياة في بيئة قاسية إلى حدٍ ما.

والورادت: صيغة للمبالغة من واردة وأخذت هذه الصيغة لكثرة ترددهن إلى الماء. بهدف جلبه.

لاقت الورادات حيزاً كبيراً من اهتمام الشاعر الفراتي وبكل ألوان شعره فنجده في العتابا يصف ورادات الخابور حيث كان وعاء الماء دن وهن ضامرات نحيلات الخصر، ولم يتكلمن مطلقاً مع من هو غير ناضج العقل:

أمـس وردن علـى الخـابور وبـدن   ســلايل مرخيـات الحـزم وبـدن

مــا حــاكن جليـل العقـل..... وابـداً   ولا بـــزوارهن وانــس عـــوى

ولقد وردن الخابور أيضاً، ولا يدري إلى أي عشيرة ينتمين وعندما رآهن فقد القدرة على المسير:

وردن على الخابور وردن على الخابور　　مدري بنات عنزه وآلا بنات الجبور

من حسنهن ياخلق ظل الظهر مكسور　　عكاز بيدي واباريهن على الميَه

ولقد وردن الماء وشرب معهن وعندما لم يجد من يحبه معهن بكى حتى جفت دموعه.

وردن على ماهن وردن على ماهن　　وسجيتهن بالجدح وشربت أنا معاهن

دحجت بالمنظرى ولفي مهو معاهن　　بكيت لمن صفى راسي من الميّه

ما في لون النايل، فانه يسأل سمك الشبوط إن كانت لديه أخبار عن الحبيب'أم لا؟ لأنه غرق ولا يدري إن كان له عودة.

شبوط عندك وسل من الداحن الجودي　　غركان ولد الحمولة ماظنتي يعودي

ويسأل النهر أيضاً إن كن قد وردنه فلقد شمَ رائحة المسك فيه:

أصدق يا جاري النهر اليوم ماجنك　　بميك كرفنا المسك والريام وردنك

ولقد أجاد بوصف اللائي وردن بير عدسه ومعلعلي ومطرين وطل.

ياريامٍ .... وارده بيـر عدسه　　مطبجه الثوبين والكذله مرسه

يذكرون الزينه كحيله مسيَسه　　تطبج العامين تصبح ضامره

*　*　*

ياريامٍ واردات........ معلعلي　　ومن هواهن دوم قلبي معلعلي

بعد ماكنتم عمامي..... واهلي　　اليوم تضربني حذف بالميجنه

*　*　*

**ياريـــامٍ وارده مطــرين ..... وطــل		عمــر ماشــفتو لبيــت الجــار طــل**

**إن ضربني وان كسرني أشهد بطل		وان فقــس عينـــي اقــول مكحلـــه**

*		*		*

ولقد قصدت الورادات الماء ولم تكن حاضرة لترافقهنَ فتمنت أن تكون برقاً لتلحق بهن:

**كد الورد عالميه يايوم ماني حاضر		لانــي بـرق تلحقهم ولاعيوني منـاظر**

وإن تكن الورادات قد اختصصن في لون النايل وفي جزء منه الذي يسمى لون الورادات ذلك اللون الذي كن يؤدينه في ذهابهن وإيابهن من وإلى الماء والذي يمتاز بصداه المحبب ورقته المؤنسة إلا أن الحديث عنه شمل كافة الألوان الشعرية الفراتية ولم يكن ما ذكرناه إلا قبسٌ منه والذي حمل بين طياته ذكرى طالما عشقناها وتغنينا بها تاركة مع صداها نايل سمي ذات أصيل نايل الورادات.

الغروب وإشكالية النهاية

يرى البعض أنَّ عمر الإنسان يشبه النهار، الذي يبدأ بالشروق مجسداً الولادة، وينتهي بالغروب مجسداً الرحيل، لتكون شمس الضحى بمثابة الشباب الذي يتفانى حتى يصل الشيخوخة، كصورة من صور النهاية، مجسداً بذلك مراحل العمر كلّها.

ترسخت هذه الصورة بذهن الشاعر الشعبي الرقي، سيما وأنَّ الشمس رفيقةٌ له في كافة مراحلها ويندر ما تُحجب بالغيوم عن الرؤية. فيرى فيها صباه وشبابه وعندما تتجاوز منتصف النهار يرى صورة الشباب وهو يأفل. فيتذكر الأحبة أولئك الذين لم يجمعه معهم القدر.

شـــمس الـــضحى هرّفـــت والفـــي بـــي مـــالي

يـــاخوي ولـــف الجهـــل عـــنَّم علـــى بـــالي

عينـــي تـــدوج العـــرب تاشـــوف أبـــو هلالـــي

أبـــو الجعـــود الـــشقر حـــط الوجـــع بيَّـــه

ولقد أشرفت الشمس على المغيب بعد أن كانت ضحى وكان يستمتع بزهو الشباب وكانت حرارة تلك الشمس محجوبة عنه بواسطة أصوله الذين كانوا أحياءً.

ولا بارك الله باليوم الذي فارق فيه الأحبة، وأخذ ينادي ويستنجد دون أن يجيبه أحد فليس لديه أقرباء وليس لديه أختٌ تحنُ عليه.

شـــمس الـــضحى هزمـــت بعـــد الهنـــا والفـــي

لابـــــارك الله بيـــــومٍ فارقـــــت ولفـــــي

ناديــــت ياجـــاذب الحـــسرات ويــــن الفـــي

لا لــــي قرابــــة ولا لــــي بــــالنزل خيَّـــة

ويشارك البوم هيامه وقت الغروب، ويذكره النسيم بالأحبة الذين يعرض عليهم الصلح:

يهـــيم دليلـــي نغـــيط البـــوم وكـــت غـــروب

كـــل مـــا يهـــب الهـــوى عنيـــت عـــالمحبوب

إن كـــان عنـــدك زعـــل آنـــي زعلـــي مكبـــوب

مـــا اقـــدر أشـــيل زعلـــك يـــا نـــور عينيّـــه

ويستغرب كيف يمسي ويصبح بالأسى ذاته:

أمـــسيت وأصـــبحت أنـــا عقلـــي يتـــشكالي

يـــا مـــن هـــواكم كمـــا العـــذري بـــدلالي

منـــك طعـــين بـــرمح يـــابو بـــرج عـــالي

دخيـــل نجمـــي ســـقط بـــالله انهـــضوا شـــويّة

ويرى الليل حاكماً أسوداً ظالماً .... وعيناه تراقب السماء تنتظر النجوم حتى تغيب وتزيل الشمسُ ذلك الحاكم الظالم.

أصـــبر لحكـــم العبـــد لمـــن مـــشى تغريـــب

عينـــي تلاشـــي الـــسما تتنـــى البـــدور تغيـــب

مـــا قلـــت لـــك ياولـــد منـــع الحـــراب يطيـــب

ومنـــع المعـــاني مخـــضّـر بالحـــشا ميَّـــة

ويبني نوجته مساءً وينتظر مغيب القمر حتى يتمكن من صيد تلك الغزالة التي أدمت قلبه وطعنته بحربتين متقابلتين فحث جواده على المسير قاصداً تلك البوادي الخالية.

حثيــت مهـــري ســـرى نـــاحر فيـــافي خـــراب
عالريمـــة العادلـــت بالقلـــب جـــوز حـــراب
أنـــو جلهـــا المـــسا واتنـــى القمـــر لـــي غـــاب
تـــصيد ريـــم المهـــا عقـــب المـــساويَّه

لكنه يتألم ويشعر بالأسى عندما يغشاه الليل ممزوجاً بالحزن ليمسي ليله ليلين وهو بانتظار الأحبة الذين لم يأتوا بعد:

الـــشمس غابـــت ليلـــي غـــدا ليلـــين
أرجـــى عويـــل الـــضواري تاشـــوفهم مـــن ويـــن

وإن غياب الشمس يذكره بالأحبة ويرى دنيا ضيقة بلا أمل ولا معانٍ فترغب رجلاه بالمسير لكنه يطلب إليها التريث:

كـــل يـــوم عنـــد المـــسا تحـــوش علـــي دنيـــاي
رجلـــي تريـــد المـــشي بـــالله اثقلـــن يـــا خطـــاي

وما العمر إلا مجموعة ليالٍ متتالية لكنه لن ينسى الأحبة مهما طالت تلك الليالي:

راحـــت ليـــالي وليـــالي تـــروح ماســـلاكم
والقلـــب بيـــه لهـــدى مـــن جـــور فرقـــاكم

وإن المسافة مابين مغيب الشمس ومطلعها لبعيدةٌ وأنه ليرى الحبيب لبعده وكأنه عند مغيب الشمس بينما هو عند مطلعها:

إنـــتم مغيـــب الـــشمس وإحنـــا علـــى المطـــلاع
وشـــصبّرك يـــا قلـــب وعـــن الغـــوالي بـــساع

وليس الليل بمرعب ومخيف في نظر الشاعر العاشق لأن القمر ينقل له أخبار الأحبة ويهلي به قائلاً:

يــا مرحبــا يــا قمــر طــارش حبيبـــي وجيــت

عينـــي عليـــك المـــسا مـــن فـــوقهم هليـــت

وقد يكون الفجر قاسياً أحياناً إذا ماظهر على عجل في عيني ذلك الشاعر:

عايـل علينــا الفجـر البــان عــاموده غــالي علينــا الحلـو مروه مـن قعوده

هذا هو الغروب بشكلية المخيف والمؤنس وهذه صورته التي اختلفت رؤياها مابين مسافرٍ في رحلة عمر وعاشق آنسه الغروب.

لكنَّ الرقيين– وإن اختلفوا بذلك – يبقى ليلهم ليلُ الرقة زاهياً وممتعاً حاملاً رذاذ الفرات ونجوى الشعراء وأمل العطشى أولئك الذين افتقدوا الماء يوماً ووجدوا ضالتهم في فرات الرقة وبليخها وأهلها الذين كانوا يصيدون الغزلان يوماً على ضفافها وآنفوا صيدها وهي ظمآنة وانتظروها حتى ترتوي وتغدو.

وادي الـزور

الزورُ: بفتح أوله وهو الميل والاعوجاج والزور أيضاً الصدر موضع في شعر ابن ميادة، وقال نصر الزور: بفتح الزاي موضع بين أرض بكر بن وائل وأرض بني تميم على ثلاثة أيام من طَلَح، والزور أيضاً جبل يُذكر مع مَنور جبل في ديار سليم بالحجاز.

قال ابن مَيادة:

وبـالزور زور الـرَقمتَين لنـا شَـجاً إنـا نـديَتْ قِيعانُـه ومذاهبُـه

بـلاد متـى تُـشرفْ طويـل جبالهـا على طرَف يجلُب لك الشوقَ جالبُه

والزور نهرُ يصب في دجلة.

أما الزور الذي نبحث فيه فهو الأرض المحاذية لنهر الفرات والتي غمرها النهرُ ذات يومٍ بمائه والمعروفة بخصوبتها[١]

يروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

أوحى اللّه تعالى إلى دانيال عليه السلام وهو دانيال الأكبر أن احفر لعبادي نهرَين واجعل مفيضهما البحر فقد أمرتُ الأرض أن تُطيعك فأخذ خشبة وجعل يجرها في الأرض والماءُ يتبعه وكلما مر بأرض يتيم أو أرملة أو شيخ كبير ناشدوه الله فيحيد عنهم فعواقيل دجلة والفرات[٢].

يذكر علماء الآثار أن وادي الفرات كان مهداً لحضارات متعاقبة ولازال هذا الوادي ينبض بها.

---

(١) معجم البلدان / ياقوت الحموي /.

(٢) حياة وأخلاق الأنبياء / أحمد الصباحي/.

أما عن وادي الزور فهو النخاع الشوكي لوادي الفرات، فلا عجب إذا ما استهدينا إليه شموليّاً وفرعياً في الشعر الشعبي الفراتي كونه الصورة الحية لحياة ابن الفرات حيث ذكرت بشكل صريح اسماءً رددها الأثريون .

فهذه بالس وكذلك الردتين وكيف وردتها تلك الجميلة التي تشبه الغزالة، وكيف خبأت للشاعر وردتين من ورد الجوري.

الريمـــة الـــساكنه بـــالس وردتـــين اللي ضمنت لي من الجوري وردتين

عاداتنـــا بـــالهوى نـــارد ... وردتـــين وحـده طلـوع الفجـر وحـده عشاويَّه

وكذلك تل عرودة وكيف يوصي أن يدفن بذلك التل.

حطّـــم قبـــري بعـــرودة وبـــرأس رجـــمٍ عـــالي

بلكـي ولفـي يمـر مـن هـين والفاتحـة يقـرا لـي

وتل قلعة جعبر:

تـــل جعبـــر لاترقـــاه يـــاللي مفـــارق عـــشيرك

خـــوفي تعـــنن وتمـــوت مـــامش نعـــش تاشـــيلك

وكذلك سحل الخشب.

بـــسحل الخـــشب لاح لـــي الكـــواك ماســـاني

صـــف الفـــشك جـــس خمـــص حـــشاي ماســـاني

أعـــض كـــف النيـــدم نوبـــه اقطعـــوا بـــسني

واجـــذب وســـايف علـــى الـــصارم ســـبب ليّـــه

ثم ترد مفردة الزور شموليا:

حيث يصف لنا الشاعر جامعة الحطب وكيف كوّت قلبه وما هو حاله حين جاءها من بخطبها:

بـــالزور حطّابـــه بـــالزور حطّابـــه **شـالت حطبهـا وكـوت قلبـي بعطابـه**

اليــوم الاقــشر يــوم لفــوج خطابــه **لقـط راسـي واخمـش الوجـه بيديـه**

ولقد استنجد بالأقارب والأصدقاء لكنهم لم يجيبوه ولكثرة همومه أصيب بالرمد الذي أبكاه .

من زور شمر نـدهت الربع مـاجوني **من زود همي صفقتي الرمد بعيوني**

إن جـاد يـا أحبابنـا لـسع ترجـوني **آنـي كـذلك علـى مـن خـاطرو بيــة**

وهي طويلة ذات قامة ممشوقة تشبه عيدان القطن الرابية بوادي الزور فكيف تتزوج بمن لا يستحقها.

قطـن مفـرد رابـي بـأرض الـزور **شـلون أتجـرد واوا سـدك يـاعفين**

هذا ما وجدت عن وادي الزور في الشعر الشعبي الفراتي وليس كل ما قيل فما أجمل هذا الوادي بطرفائه وغربه وصفصافه وما أشذى عبير ورد الجوري والياسمين فيه وما أعذب فراته .

وما أطرب أصوات العصافير واليمام وهي تعزف لحن الأمل وسنفونية الحب الأبدي

النسيم

لا غرابة إذا ما اكتنزت الذاكرة الفراتية النسيم، سيما وأن البيئة الفراتية، بيئة صحراوية شبه جافة، فالسيبيري أو السويدي لا يعني له النسيم شيئاً لأنه ليس بحاجه إليه. أما ابن الفرات فطالما كان النسيم صديقه ومصدر نشوته في أيام القيظ المحرقة، لذلك كان دائماً يذكره بالحبيب، فيحمل له أخباره، وعطره ومحبته، ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على الشعر الشعبي الفراتي فحسب، بل كانت متواجدة في مواطن عدة، في الشعر بشقيه العربي القديم والحديث.

يقول ابن زيدون:

وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنه رقَ لي فاعتل إشفاقا

وقد ذكر النسيم في جلّ ألوان الشعر الشعبي ا لفراتي.إذ أننا نجده في العتابا قادماً إلى الشاعر ويحمل بين طياته عطور ضفائر الحبيب:

ثلث بسمات من شفتو وهب لي هنَ السبب جني وهبلي

أنا كل مانسم الغربي وهب لي تجيني ريحة جعوده طياب

كما نجده في الموليّا يحرك القلائد المترامية على صدر الحبيب مما يجعل الشاعر يذكره كلما هب الهواء.

هب العذيمي وقبقب شوكروه والطوق كلما يهب الهوى حنيت لك ياشوق

دقم براز الحلو بلله انهضوا.. لي فوق قلبي على فراقهم سيخ .. بجمريَه

أما في لون النايل فإن الشاعر يرحب بالنسيم (ريح العذيمي)القادم من فوق الفرات حاملاً معه تحيات الحبيب وأشواقه:

ريح العذيمي لفى من فوق شط مراد   جايب سلام الحلو هليت بيه من غاد

لكنه لايلبث أن يطلب من الريح أن تسير بهدوء حتى لاتجرح خدود الحبيب:

ياريح امش بهواده خد الزين لاتدميه   خايف عليه يتبثر جرح القلب يحيه

وفي لون اللكاحي يبدو الشاعر أكثر رقةً حيث يرحب بالنسيم ويحاول الإمساك به بكلتا يديه لأنه حاملاً أشواق الحبيب وتحياته لكنه لا يستطيع:

يا مرحبه بالغربيماينقضب باليدي   جايب سلام الغالي من بلاد بعيد

ويكرر الترحاب به، ولا يلوم قلب الذي تولع بالأحبة.

يا مرحبه بالغربي شفاف مثل هدومه   قلب تولع بيهم لاوالنبي مالومه

ويستمر بترحابه بالنسيم ويصف لنا رقبته، التي تشبه عود الشمع، وذوائبه الشقراء:

يا مرحبا بالغربي امية هلا بنسناسو   عود الشمع يرقبته شقرا ذويبة راسو

ثم لا يلبث أن يطلب استبدال مكان رواق بيت الشعر ليجد أن الحب كالهواء ذو تجاهات متغيرة:

هب هب نسوم الغربي يا بنيه قومي ديري

أهلي ما يعطوني تجوز.... ياعشيري

وبهذا نجد كلمات أرق من النسيم ذاته، غاصت إلى أعماق قلب الشاعر الفراتي، وظهرت زاهية كأوراق شجرة الدفلى الناصعة بين وريقات بطعم الحنظل، وجاءتنا عفوية صادقة ونقية كماء الزلال،لتروي نفوساً طالما ذاقت الأسى واللوعة ممزوجين بالحب والأشواق النقية.

الطبيب

كثيرة هي الحكايات الطبية ،التي تشكل حيزاً كبيراً من حيثيات حياتنا اليومية، ويكاد لا يخلو مجلس ممن يتجاذبون الحديث عن الحديث عن الطب والأطباء، أولئك الذين يحاربون دائماً من أجل الحفاظ على سلامتنا، ونجد بعضهم الآخر يتصدر حياتنا الأدبية في الشعر والرواية والقصة، وما الدكتور إبراهيم ناجي والدكتور عبد السلام العجيلي إلاّ خيرا مثلٍ على ذلك.

دخل الطبيب جوانب الشعر الشعبي الرقي، كما دخل جوانب الحياة الأخرى، كيف لا والشاعر عاشقاً سقيماً، وكثير الشكاية، وجريحاً يبحث عمن يخيط له جرحه، ولكنه لا يفلح دائماً في شفاء الشاعر.

فلقد لف الطبيب جرحه – في لون العتابا – ورغم ذلك لم يشفَ ولم يتحسن حاله، ولم يعد يميز ما بين اللون الأبيض واللون الأسود.

لـف قنـدوس جرحـي ومـا شـفاني　　　ولا نفـــع بحـــالي ولا شـــفاني

يـوم فـراق خلـي مـا اشـوف آنـي　　　الـسواد مـن البيـاض مـن العمـى

وقلبه تضغطه الآلام من كلا الجانبين، وهمومه كثيرة، لذلك أتوه بالطبيب الهندي ليعطيه دواءً شافياً:

يـا قلبـي مـا بـين جـاذبتين تـازوك　　　محمـل مـن همـوم الـدهر تـازوك

جيبولـــــي طبيـب الهنـد تـايزك　　　البيـابر بـالجروح ......المولـــه

أما في الموليّا: فلقد عجز أشهر الأطباء والحكماء (لقمان الحكيم) عن وصف دواءٍ شافٍ له، وهو متيقن بأن الطبيب الوحيد الذي يستطيع معالجته هو حبيبه، ويطلب منه أن يسرع في علاجه لأن جروحه على وشك أن تؤذيه.

لقمان جرح الهوى تاه بتواصيفو — لاهو طبيبي ولا آني اصبر على حيفو
جيبم حبيب القلب يداوي على كيفو — يبري جروحي قبل ما يمعنن بيّه

ويجدد شكايته ويطلب من الطبيب أن لا يبالغ بشد الجبيرة؛ لأن آلامه تتجدد كلما أوشك على الشفاء.

آني جتلني بحرف الواو والضادِ — اثنين حرمن علي النوم والزاد
مكسور ضلعي ترى لا تكرب شدادي — كلما يطيب الجرح لي تلجمو ليّه

وهو يشعر بألم الجرح، ذلك الجرح الذي يؤلمه دون أن ينزف دماً كغيره من الجروح، وكانت سبباً له تلك "النجود" الجميلة.

الريام جنّا قرن وردن علي ياعم — بيهن نجود طعنتي وما ظهر لي دم
تلايمن وجفلن فزّن وجمن جم — اركض وراهن واخملهن ولف ليّه

وألمه يشبه ألم اللديغ، لكنه لم يبحث عن علاجه،فدواؤه ليس لدى الطبيب فحسب، بل إنه يساءل الشيخ ومعلم القراءة والكتابة علّهم يجدون له سبيلاً للشفاء:

عنّيت يا اهل الهوى عنّة لديغ الداب — وما شفت يا صاحبي مثلي لديغ
أسايل أهل العلم الشيخ .... والكتاب — بلجي بحرف الكتب يلقى سبب ليّه

أما في النايل المربع فإن الشاعر يخبرنا بأنه أمسى يشبه الجمل الذي يصك أسنانه ألماً، ولثقل الحمل الذي يحمله أخذ يتكئ على جنبيه وجرحه عند مركز ثقل ما يحمله ولا يشفى ذلك الجرح والجمال لا يدري بجرحه.

ظليت مثل الجمل اصرك على نـابي　　　من ثقل حمليي انا اتوكى على جنابي

الجرح جوى الجنب عمّل ولا طابي　　　لا الجرح يبرى ولا الجمال يدرا بـي

في النايل الثنائي فإنه يساءل الذئب لما يعوي وكبوده سليمة بينما كبد الشاعر صفراء تشبه الجلد المصبوغ بالدباغ لشدة ما يعاني.

يا ذيب ليش تعوي كبودك بعدهن صاغ　　　واني كبودي غدن جلد وعليه دباغ

وفي لون اللكاحي:

أمسى الشاعر كمن لدغه العقرب، وامتد ألم ذلك السم حتى وصل إلى عظامه، وهو يعلم من هو طبيبه، ويطلب أن يأتوه برضابه علَّ آلامه تخف ويتمكن من النوم:

آنـــي لـــدغتني العقـــرب ســـمها ســـطا لعظـــامي

هـــاتم مـــن ريـــج الغـــالي بلجـــي اغفـــي وانـــامي

ولقد وصفوا له دواءً لعلته عند ذلك الطبيب، ونجده يتوسل إليه كي يعالجه ليتمكن من اللحاق به ولو كان سيراً على الأقدام إن لم يجد مطيةً يمتطيها.

دكتــور داو العلــة يـذكرونك طبيبــي　　　وان جلت الطايا برجلي لاصل حبيبي

هذا هو الطبيب بكل صوره العلمية والروحية، يآخي الشاعر الشعبي الرقي وألمه، ويبحث له عن علاج مرتدياً تلك السترة البيضاء التي طالما كانت سبيلاً لنجاة أغلب مرضاه، لكنه لم يفلح بعلاج ذلك السقيم الذي يعلم بأن حبيبه، هو الطبيب الذي سيجد على يديه الشفاء ليس بوصفة طبية تحمل كلمات لاتينية وإنما بابتسامة خبأها لتدفئة يومٍ شتائي قارص، وأسنانٍ براقةٍ تضيء ليلاً أضلّه الطريق.

القمر

من أروع ما خص به القمر أن وردت إحدى سور القرآن الكريم باسمه.

﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾ القمر آية(١)

والقمر ذلك الكوكب الجميل، الذي يشاطرنا الأماسي الجميلة، والذي اتخذنا منه صديقاً، كوننا نعيش في مكان جغرافي، لا تحجبنا فيه عن القمر الغيوم إلا نادراً، ولا تحجزه عنا الجبال الشاهقة، يبدو لنا عندما يطلع ونراه حين يغيب و شاركنا أعيادنا السعيدة والمباركة.

اتخذ القمر مكاناً مرموقاً لدى أهل الرقة، فهو يضيء دون أن يبعث حرارة ويتراءى لهم في الفرات قمراً آخر، ويزين ليل الرقة المعروف بروعته لذلك لا استغراب إذا ما تحدث عنه شعراؤها وأدباؤها بقصائدهم وقصصهم ومن حيث أن الشعر الشعبي أحد تلك الأصناف الأدبية لا ريب أن نجد للقمر ذكراً فيه ولا سيما في لوني الموليّا و النايل.

يحدثنا الشاعر الشعبي الرقي في لون الموليّا، كيف عدا بحصانه قاصداً تلك البوادي المهجورة والمخيفة، لأن تلك الجميلة التي طعنته بحبها بحربتين متقابلتين قد التقيتا في قلبه قد سكنتها. وكيف بنى مخبأ وينتظر القمر حتى يغيب ليتمكن من صيدها.

حثيث مهري سرى ناحر فيافي خراب   **عالريمة العادلت بالقلب جوز حراب**

أنوجلها المسا وارجى القمر لي غاب   **تا صيد ريم المها عقب المساويّة**

وجبينه يشبه ضوء القمر عندما يكون بدراً، وقد سكب الدموع لفرقاه دون أذية أو شكاية، ذلك الذي يشبه زكاء عطره رائحة الريحان.

يـا ضـي جبينـو يخـدو تقول بـدر هـل   دمعي على خلتي من غير سايه هل

أسـايلك بـالنبي مانـت ولـد مـن هـل   محـشي جعـوده مـن الريحـان مملّيـه

أما في لون النايل فلقد وجد الشاعر القمر كمن لثم وجهه إشارة إلى غيظ أو عتب، حينما رآه وجزء منه محجوب بالغيوم، ويساءله لماذا لا يضيء فلقد ذكّره بأولئك الأحبة الذين هجروه.

تلثمت يا قمر عليش اليوم مـا تاضـي   تعنن علينـا مـسير الولـف بالماضـي

وعندما زارها حبيبها وجدته أجمل من القمر، لذلك سألته من طلب إليك أيها القمر حتى ترسل بأنوارك إلى بيتنا، فلم يعد يهمنا إن أضأت أو تلاشت أنوارك فلقد وجدنا بديلاً لك.

مـن قالـك يـاقمر تاضـي بوجـه البيـت   محنا بحالك ياقمر إن غبت وان ضليت

وكثيراً ما تشاركنا الجلوس في بيت الشعر، الذي يحيط به رواقان عندما كان الفصل خريفاً، والقمر بآخر أوانه.

يامـا قعـدنا سـوى والبيـت بـرواقين   والقمـر تـالي شـهر مـا بـين تـشرينين

ولقد صعد إلى قمة التلة بينما القمر تكلله الغيوم، والنسيم حاملاً أخبار الأحبة وعطورهم الزكية .

رقيـت راس العلـو والقمـر غـط بغيـم   وهبـوبكم يـا حلـو نـسّم علـي تنـسيم

ولقد عاتب القمر الذي كان يؤنسه، كيف يختفي بالغيوم، ويسمح لها بالسيطرة عليه.

لاعاتبــك يــا قمــر تمــشي بــالغيوم   ذكرتني بالمضى وهيضت لي همومي

ثم يساءله إن كان قد رأى الأحبة أولئك الذين افتقدهم وتركوا ذكراهم ذات الطعم الندي تداعب القلوب كالنسيم.

اسـايلك يـاقمر مـا شـفت محبـوبي ذكـر الغـوالي طـري يلعـب بـالقلوب

وهو يختلس المسير إلى الأحبة، ويعاتب الليل، كيف لم يتمكن من إخفائه ويخشى أن يظهر ضوء القمر فيكشفه.

لحّـد ياهالليـل ظلامـك مـا يغبينـي مـا ريـد ضـو القمـر أخـاف تـشيني

وأخذ الشاعر يخبر الأحبة بقدومه، لأنه مرض لفرقاهم ولا يستطيع الأطباء معالجة من أصيب بداء الهوى.

غاب القمر غاب تراني جيتكم ياحباب طعيـنكم بـالهوى محـد لقـالو طبـاب

هذا هو القمر وتلك هي أنواره، تشبه خدي الحبيب، وجبينه مؤنس في ليالٍ طالما تغنى بها الشعراء، ومنذر ليومٍ ذهب من العمر، ومشاركٍ لأفراح طالما أشدتنا، ومواسياً لأشجان اعتصرت قلوبنا ذات مساء، فما كان من الشاعر الفراتي إلا أن يقاسمه حفنةً من الأماني بعثرها القدر، ولم يتمكن من التقاطها لأن شعاع القمر قد تلاشى معلناً موعد الرحيل.

حسن الخلق

وإن اختلفت الأمم والشعوب بأشياء شتى عبر العصور، أجلّها الديانات، بيد أنها تكاد تتفق بتلك المفردة السامية "الأخلاق" والتي يعتبرها بعض فقهاء القانون مصدراً من مصادر التشريع.

يقول سبحانه وتعالى في الرسول العربي الكريم (r): ﴿**وإنك لعلى خلقٍ عظيم**﴾ القلم (آية٤).(١)

ويقول صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

ورأى أمير الشعراء أحمد شوقي بأن الأخلاق محط تقييم الأمم وربط وجودها بوجود الأخلاق.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومع هذا نجد تبايناً بين الشعوب في توصيف الأخلاق، فما يعتبره العرب من الأخلاق قد لا يعتبره الهنود، وما يدرجه الإفريقيون تحت مظلة الأخلاق قد لا يدرجه الأمريكيون.

وإذا ما أردنا تقفي الأخلاق في المجتمعات العربية، فإننا نجدها على الغالب متشابهة، وحين نحدد نظراتنا نحو المجتمع السوري ثم الرقي، فإننا نجد بأن الأخلاق، تحتل مكانة سامية عند أهل "الرقة"، وقد تجسد ذلك في شعرهم الذي كان لساناً لحالهم. وقد تغنوا في ذلك في أكثر ألوانهم الشعرية،

---

(١) القرآن الكريم. مسند الشهاب القضاعي.

فهاهو شاعر العتابا تذكره دياره بأولئك الذين رحلوا وكانوا يحملون ثلاثاً من الخصال الحميدة (المروءة والشجاعة والسخاء).

تهيمنـــي رســـوم الـــدار بـــيهم — علـى اللـي جنـت أجيـد عـداي بـيهم

ثـــلاث خـــصال دوم تعـــيش بـــيهم — المـــروة والمراجـــل .... و الـــسخا

ويفتخر شاعر القصيد بأخلاقه الحميدة، والتي يرى بأنه ورثها بنسبه حيث إغاثة الملهوف، وعدم النظر إلى ما لا يعنيه وما هو محرم، والابتعاد عمّا هو دنيء، ويصونون عرضهم، ويحفظون جارهم، وهكذا هي أفعالهم منذ جدهم الأول عمرو بن معد يكرب الزبيدي الفارس والشاعر المعروف.

إحنـــا ابطـــال والتـــاريخ يـــشهد — إحنـــا الزبيـــد المـــا نعطـــي وطنّـــا

اهـل شـيمة وحـشيمة واهـل عفـة — واهــل نـــاموس مــن جــدنا لاهلنـــا

وفي الموليّا لم يعجب الشاعر في حبيبته حسنها فقط، بل كانت فوق ذلك تمتاز بحسن الخلق، ويتمنى إلى الخالق سبحانه وتعالى أن يجعلها من نصيبه:

شدت على هودجٍ ما هابت المطلاع — زينـة حلايـا وفـوق الـزين زيـن طبـاع

يا رب يا منبت الصفصاف والنعنـاع — تجمـع شـملنا علـى شـرع الاسـلاميّة

وفي ألوان التشاطيف، يرى الشاعر الموصفة تتقيد بأدق تفاصيل حسن الخلق، فهي لم تزر جيرانها بتاتاً، لذلك مهما جاءه من أذيّة سيقبلها بكل رحابة صدر:

يـا خـشوف واردة مطـرين وطـل — وعمرمـا شـفتو لبيـت الجـار طـل

إن ضـربني وان كـسرني اشـهد بطل — وان فقـــس عينـــي أقـــول مكحلـــه

ولقد أجادت النساء في شعرهن "النعي" بذكر حسن الخلق، لاسيما العفة منه، فنجد الشاعرة تقول، إنه لخلوق ومؤدب، ولا يؤذي جارته وإن نامت قربه، ويمكنها أن تنام باطمئنان فلن يوقضها إلا صوته أثناء الصلاة:

يـــا جـــارتو نـــامي حـــذاتو ٭ مـــا تجعـــدج ألاّ صـــلاتو

وهو من ذوي الأخلاق الحميدة، التي ورثها عن أجداده، لكن عين الحاسد أصابته:

أهـــل الطبـــع والمقطـــع الـــزين ٭ أمـــس المـــسا صـــابتكم العـــين

تلك هي الأخلاق وحسنها تفوح كرائحة المسك التي لا يمكن إخفاؤها، حملها أجدادنا، وتباهوا بها وتغنوا، فكم من عربي ضحّى بدمه من أجل الحفاظ على سمة من السمات التي حثه عليها الخلق النبيل وكم من كريم أجاد بكل ما يملك، ليغيث ضيفاً عابراً قد لا يعرفه ولا سلطان عليه حينها إلا حسن الخلق.

الزواج الملزم

كما هو معروف شرعاً يخضع الزواج لشرطي الإيجاب والقبول، إلا أن بعض الأعراف والعادات الاجتماعية تنوء به أحياناً دون ذلك. حيث يبنى على كلمات صورية تخفي وراءها شجوناً، وتحني خلفها آمالاً تتحطم رويداً رويداً.

عرفت هذه الظاهرة في الأدب العربي، واشتهرت في شعر بني عذرا أولئك الذين كانوا إذا عشقوا ماتوا ومن خلال اطلاعنا على بعض نماذج الشعر الشعبي الرقي، وجدنا آثاراً لهذا الشكل من الزواج. إذ يرى بعضهم أن الزواج بينه وبين من يحب مستحيلاً .

دفـق دمـع البيـابي مـن رعـوده   شـبه مـزنٍ تحـدر مـن رعـوده

حبيبـي وردة الكنـدس مرعـوده   حـرم مـا تـاكلوه عـوج الرقـاب

أما شاعر "الموليا" فقد استسلم للأمر الواقع، وأخذ يشكو آلامه وشجونه فعندما يهب النسيم يذكره بالحبيب وكيف يداعب قلائد الذهب التي تزين صدره، ويرجو من الآخرين أن يبنوا بيت العروس في مكان عالٍ، لأن قلبه أمسى على فراقه كالسيخ الذي يتقد لهيباً فوق الجمر، كيف لا وقد تزوج من غيره؟

هـب العـذيمي وقـب قـب شـوكرو والطـوق

كلمـا يهـب الهـوى حنيـت لـك يـا شـوق

دقـم بـراز الحلـو....بـالله انهـضوا لـي فـوق

وقلبـي علـى فـراقهم سـيخٍ بجمريّـه

أما شاعرة اللكاحي، فحبها مستمرة، وستبقى تذكر حبيبها وتخلص له وإن تعددت زوجاته، ومهما كان عددهن:

لا ظــل آنـــي بطـــرد هـــواك لـــوّك تاخـــذ ثلاثـــة

والأربعـــــة والخمـــــسة والــــسادسة برجواكـــــه

وهي لا تنكر بأنها لا زالت تتمنى لو كانت زوجة لحبيبها الأول، فلقد أضحى قلبها كالحطب الذي يوشك على أن يحترق، وأخذ يتأثر بالنار التي تشتعل قربه وإن كانت بعيدة:

غربـــي حلــب علجــت نـــار بالقلـــب وج لـــساني

جبنـــا ضـــنى وخلفنـــا ونفوســـنا بالغـــالي

أما شاعر النايل فحديثه في عرس الحبيب الذي تزوج من غيره فيه شجون، فهو يبارك بالزواج، ويسأل أين سيبني حبيبه السابق عش الزوجية، ويبلغه بأن الليالي العذبة ستمضي وسيعاتبه على ذلك.

عرســـك مبـــارك حبيبـــي الحجنـــة ويـــن تبنيهـــا

يمـــرن ليـــالي الهنـــا واعاتبـــك بيهـــا

ويكرر "المباركة" مرة أخرى، ويخبره بأنه حزين على ذلك فكيف يتركه ودموعه متناثرة على خديه وهو يقضي أحلى أيامه.

عرســـك مبـــارك حبيبـــي لـــو خـــاطري مكـــسور

أنـــت بعـــز وهنـــا وآنـــي الـــدمع منثـــور

ثم يعاتبه كيف يتزوج بغيره، ولا يأخذ بمشورته -أقلها- وهو يرى بأنه سيندم لأن الأيام السعيدة لابد آفلة:

عرســـك مبـــارك حبيبـــي يالمـــا طعـــت شـــوري

يمـــرن ليـــالي الهنـــا وتقـــول مجبـــور

ولقد أبكاه حتى آلمته عينه، فبمن سيستأنس قلبه بعد ذلك الحبيب الجميل:

عرســـك مبـــارك حبيبـــي لـــوّك طرفـــت العـــين

ومنهـــو اليـــونس القلـــب مـــن بعـــدكم يـــا زيـــن

ثم يتساءل كيف سيكون صباح اليوم التالي، لمن تزوج مرغماً.

واقـــــف بيـــــت اهلـــــو ويلـــــوح مـــــسباحو

إش حـــال المجـــوز غـــصب و شـــلون مـــصباحو

لكنه سيبقى وفياً لحبه ولن يتزوج من آخر، حتى يرى أبناء حبيبه وهو يحملهم على كتفيه، ويقطع حينها انتظاره.

عـــــشيرنا الأولـــــي مـــــن عاشـــــر خلافـــــو

ألا نـــــشوف الـــــضنى يلعـــــب علـــــى كتـــــافو

أما شاعرة السويحلي فإنها اقتيدت بالقوة وتحت تهديد السيف وزوجت بذلك الذي لا يستحقها وهي ترى بأنه ليس من الأخلاق الحميدة إبعادها عن ذلك الجميل الذي تهواه:

بالـــــسيف قـــــوّه...... عـــــالعفن جـــــابوني

مـــا هـــي مـــروّه عـــن الـــزين تنحـــوني

تلك هي حالة الزواج الملزم في الشعر الشعبي الرقي، وإن كانت نادرة بيد أنها موجودة، تطفوا على بحر أسمّوه "الرقيون" ذات يوم "بحر الهوى" وتتلألأ صدقاً وحباً وشجون تتلاشى أمام كلمة نرددها جميعاً ونكررها هكذا عبثاً "قسمة ونصيب".

الفهرس

الصفحة

الإهداء ٥
تنويه ٦
تمهيد ٧

الباب الأول

ألوان الشعر الشعبي الرقي ٢٣
الموليا ٢٥
العتابا ٧٩
النايل ٨٧
اللكاحي ٩٧
السويحلي ١٠٣
القصيد ١٠٩
التشاطيف ١١٧

الباب الثاني

أحاديث على الهامش ١٢٣
مراسم الزواج وأغانيه في الريف الرقي ١٢٥
طقوس الحزن وأغانيه. في الريف الرقي ١٣٠
الكلمة الأنثوية ١٣٧
الطي والنشر ١٤٦
الرقة في أغانيها ١٤٩
عفاف الناقة وصبر الجمل ١٥٤

الصفحة

البليخ في الذاكرة الشعبية الرقية ١٥٧
المسك.. ١٦٠
الهباري ١٦٣
الحطابات... ١٦٦
العذول ١٦٨
الرحيل ١٧٠
ملامح الوجه ١٧٢
العنين ١٧٥
المكتوب... ١٧٨
المطر ١٨١
جفاء النوم.. ١٨٤
قلائد الذهب ١٨٧
وصف العيون.. ١٩٠
طول القامة.. ١٩٣
النجم ١٩٦
الطارش ١٩٩
السلام.. ٢٠٢
الحظ ٢٠٥
الورادات ٢٠٨
الغروب وإشكالية النهاية ٢١١
وادي الزور ٢١٥
النسيم.. ٢١٨
الطبيب... ٢٢٠
القمر ٢٢٣
حسن الخلق ٢٢٦
الزواج الملزم ٢٢٩

المؤلف في سطـور

محمد الموسى الحومد من مواليد الرقة – طاوي رمان ١٩٦٩ يحمل إجازة في الحقوق الجامعة العربية.

كتب الحومد الشعر والقصة لكنه تعمق في البحث التراثي الشعبي الذي استهواه فعمل على سبر أغواره والبحث عن لآلئه بموضوعية أقرب ماتكون إلى حميمية الحياة العادية وهو في ذلك لا يقدس الماضي أو يمجده أو ينغلق عليه بقدر مايهدف إلى الإضاءة على المشرق واكتشاف الجيد فيه لإعادة تشكيله فيسهم بذلك في بناء الحاضر .. وتأصيله ليؤسس لمستقبل أكثر اشراقاً ورسوخاً.

ويعتبر كتابه هــذا (أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي) إضافة مهمة إلى مكتبة التراث العربي حيث يجد الدارس فيه مادة غنية مدعمة بالشواهد في الشعر الشعبي الرقي وألوانه وأغراضه وذلك عبر الإضاءة على طقوس رقّيّة خاصة بالفرح والحزن وأغاني الورّادات والحطّابات ومفردات بيئية أخرى.

وهو في ذلك لا ينسى الإشارة إلى معالم الرّقة الهامة كالسور العتيق وجعبر والبليخ والفرات ... الخ. لغة رشيقة وسلسة تجذب القارئ وتشده.

وكتابه هذا هو الثالث بعد:

١- قبسات من الشعر الفراتي – دار الصفدي – دمشق ١٩٩٥.

٢- شعراء الموليّا في القرن العشرين – دار الغدير – سلمية ٢٠٠٠.

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة


باب بغداد وسور الرقة الأثري

أحاديث على الهامش في الشعر الشعبي الرقي

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م
سعر النسخة ؟؟؟ ل.س أو ما يعادلها